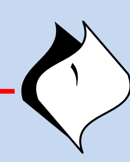
المأمول

مِنْ شَرْحِ سِتَّةِ الأُصُول

شرحها

أبو عائش محمد سميح فاضل فضل الشيخ

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين أجمعين



بين يدي الشرح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضل له، ومَن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:-

فمع رسالة أخرى من رسائل الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكنا قد تكلمنا في الرسالة الأولى على أمور مهمة وهي نواقض الإسلام.([1])

وقلنا: إن المرء كما أنه ينبغي عليه أن يتعلم التوحيد وأن يتعلم ما يستقيم به دينه، فكذلك واجبٌ عليه أن يتعلم الأمور التي قد تؤدِّي إلى نقض الدين وإلى الخروج منه وهي التي تسمَّى بأسباب الردة.

وانتهينا في الرسالة الأولى من أمور عشرة ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم اليوم إن شاء الله مع رسالة قيمة جليلة هي من الأهمية بمكان، وهي رسالة الأصول الستة. ذكر المصنف في هذه الرسالة ستة أصول جاء بيانها واضحًا في كتاب الله وفي سُنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومع ذلك غابت عن كثير من الناس وحَدَث فيها غَلَط عجيب وخَلْط من الناس حتى صارت كالأمور المجهول بها والأمور التي ينكرها بعض من لا يعلمها –وما أكثرهم!– على مَن ينادِي بها.

هذه الأصول الستة:

- هي الإخلاص لله تبارك وتعالى، وبيان ضده الذي هو الشِرك.
- ثم الأصل الثاني: الاجتماع في الدين والنهي عن التفرق فيه.
- والأصل الثالث: السمع والطاعة لولاة الأمور في غير معصية الله.

---

[1]- عجَّل الله تفريغها والانتفاع بها.

▪والأصل الرابع: بيان العلم والعلماء، ما العلم؟ وما حقيقته ؟ ومَن العلماء الذين يؤخَذ منهم العلم؟ فليس كل واحد يتكلم في دين الله يُسمَّى عالمًا، وبيان الفقه والفقهاء ومَن تشبَّه بهم وليس منهم؛ أي بيان مَن تشبَّه بهؤلاء وليس منهم؛ عليه سِيما العلماء في ملبسه وقد يكون ذلك في طريقة كلامه ولكنه ليس من العلماء ولا من الفقهاء بسبب ما يقع فيه من غَلَطٍ في طريقة الاستدلال وغير ذلك.

▪الأصل الخامس: بيان مَن أولياء الله الصالحون؟

▪ثم الأصل السادس: وهو رد الشُبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسُنَّة؛ فإن الشيطان وضع على ألسنة بعض الناس وألقى في قلوبهم أن القرآن والسُنة لا يستطيع المرء أن يفهمها مهما بلغ من العلم والمكانة، وواجب عليه أن يُقلِّد غيره، ومن ثَمَّ انتشر التقليد بين الناس, فأدَّى ذلك إلى تعطيل أحكام الله تبارك وتعالى.

إذًا ترتيبها هكذا: الإخلاص، ثم الاجتماع في الدين، ثم السمع والطاعة لولاة الأمر، ثم بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء ومَن تشبَّه منهم وليس منهم، ثم بيان مَن هم أولياء الله، ثم الأصل الأخير في ردِّ هذه الشُبهة التي ألقاها الشيطان في ترك القرآن والسُنَّة.

وهذه الأصول يكررها الإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرًا ويُكرِّر ضدها، فهاهنا في الأصول الستة ذكر هذه الأصول الستة، في مسائل الجاهلية ذكر ضد هذه الأصول بنفس الترتيب؛ فذكر هاهنا الإخلاص، ذكر أول مسألة من مسائل الجاهلية الشرك.

ذكر هاهنا الاجتماع في الدين، ذكر المسألة الثانية هناك التفرق في الدين.

هاهنا ذكر السمع والطاعة لولاة الأمور في غير معصية الله، ذكر هناك أن من مسائل الجاهلية الخروج على ولاة الأمر.

ثم ذكر هاهنا بيان العلم والعلماء، ذكر في مسائل الجاهلية الجهل وما يؤدِّي إليه من خطر عظيم، فالرجل كان ذا فقه عظيم رحمه الله يعي ما يكتب ولماذا يكتب ويؤلف.

وهذه المسائل كما ترون مترابطة ينبني بعضها على بعض:

فهاهنا بدأ بالإخلاص أي إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى, وهذا الإخلاص أي التوحيد هو الذي يؤدِّي إلى الاجتماع في الدين، فالناس لن يجتمعوا أبدًا إلا إذا أخلصوا العبادة لله، أما إذا وقعوا في الشرك صاروا متفرِّقين متنازعين، الذي يجمعهم هو التوحيد والإخلاص.

ولذلك ما من نبي يأتي قومه إلا وهو يقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، يدعوهم دائمًا للتوحيد، مع ما عند هذه الأمم من مشاكل في الصناعات والتجارات والظُلم وغير ذلك، ولكن ما كان يبدأ بذلك، يبدأ بما يُصلِح قلوب الناس ويبدأ بالأمر الأهم الذي هو إخراج الناس من الشرك إلى إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى.

فإذا أخلص الناس العبادة لله اجتمعوا على دين الله ولم يحدث بينهم تفرق، فلم تظهر هذه الفِرق والجماعات. لماذا ظهرت الأشاعرة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكُلابية والماتريدية والصوفية؟ لماذا ظهرت هذه الجماعات؟

بسبب أنهم فرَّطوا في الأصل الأول الذي هو أصل الأصول، وكذلك فرَّطوا في متابعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ على هدي سلف الأمة.

فهذه المسائل كما قلنا مترابطة، هذا الاجتماع لن يكون إلا بمتابعة أولي الأمر العلماء والأمراء والسمع والطاعة لهم في غير معصية الله، ولذلك احتجنا بعد ذلك لمعرفة من العلماء وما الواجب تجاههم هم والأمراء، فهذه المسائل لو نظرنا فيها

لاتضَّح لنا علم هذا الرجل، هذا الرجل كان صاحب علم عظيم، والذي يُدلِّل على علمه أمور:

●الأمر الأول: ما تجده في كُتبه من العلم وفقه الاستدلال من الاقتصار على الكتاب والسنَّة وكلام أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومَن جاء بعدهم من التابعين، فهذه طريقة فهم الدين: كتاب وسُنة بفهم سلف الأمة، هذا أولًا.

●وأما الأمر الثاني: فإن الذي يدل على فقه الرجل وبلوغه المكانة العظيمة في العلم: سهولة عرض الرجل للمسائل، فإنك لو نظرت في عرضه للمسائل وللعلم في كثير من الكُتب تجده كلامه سهلًا ميسوراً، لا يتقعَّر في عرض المسائل، فلا يأتي بصعب الكلمات وغريبها، وإنما يأتي بالكلمات اليسيرة، وهذا يدل على مكانة الرجل في العلم، وأن الله قد ألآن له لغة العلم.

وترى ذلك مثلًا في الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ الذي بلغ مكانة عالية جدًا في العلم، ومع ذلك لو نظرت في مؤلفاته وفي شروحاته الصوتية تجد كلامه سهلًا ميسورًا يفهمه العامِّي، وهذا كله يدل على مكانة الرجل وتمكنه من هذا العلم.

فهذه الأصول أصول ستة، وليس معنى اقتصار المؤلف على هذه الأصول الستة أن هذه هي أصول الدين فقط، وإنما ذكر هذه الأصول لوقوع الخَلل فيها، كما ذكر ثلاثة الأصول التي مبنى الدين عليها، وتقييد العلم بهذه الصورة مما يسهل حفظه.

فليس معنى ذلك أن للدين ثلاثة أصول فقط، ولكن هذه الأصول وقع الخَلل فيها عند الناس، فنسأل الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يجعلنا من المتدبرين لكتابه المتفقهين في سُنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأن يرزقنا الهداية والاستقامة على ذلك حتى نلقاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

(المتن)

بسم الله الرحمن الرحيم

من أعجب العجاب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول بيَّنها الله تعالى بيانًا واضحًا للعوام فوق ما يظن الظانون، ثم بعد هذا غلط فيها كثير من أذكياء العالم، وعقلاء بني آدم، إلا أقل القليل.

(الشرح)

أراد رحمه الله أنه بعد أن بانت هذه الأصول بيانًا شافيًا واضحًا غلط فيها كثير من الناس بسبب ما أصابهم من الجهل والتقليد والبُعد عن المنبع غير المُكدَّر وهو الكتاب والسُنة بفهم سلف الأمة.

ولذلك ذكر هذه الأصول يقول: **من أعجب العجاب**، وسبب التعجب كما ذكر المصنف هاهنا: كثرة المخالفين في هذه الأصول الستة مع وضوحها وكونها بيِّنة واضحة بشكل يفهمه عوام الناس.

فالعامي صاحب الفطرة السليمة ممن لم تتلوَّث فطرته يفهم هذه الأصول ويعلم أنه يجب علينا أن نخلص التوحيد لله، وأن المرء إذا قال يا عبد القادر أو يا بدوي أو يا حُسين أو يا سيدة: العامي يعلم أن ذلك صرف العبادة لغير الله، يعلم كثيراً من مفردات توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

ولذلك لمَّا دخل الرازي بلدة من البُلدان، الرازي محمد بن عمر كان من أئمة المتكلمين وأئمة الأشاعرة، لمَّا دخل بلدة من البُلدان التف الناس حوله، فجاءت امرأة عجوز وقالت: مَن هذا؟

فقالوا: ألا تعرفين هذا الرجل؟ هذا الفخر الرازي يعلم ألف دليل على وجود الله، فماذا قالت هذه المرأة العجوز بفطرتها؟

قالت: وهل وجود الله يحتاج إلى كل هذه الأدلة؟

هذه أمور مستقرة في القلب لا تحتاج إلى التدليل عليها، أفي الله شك؟ والله ما احتاج إلى ألف دليل إلا لمَّا قام عنده ألف شك!!

الذي يحتاج إلى تدليل وتذكير وانطلاق من توحيد الربوبية هو توحيد الله تبارك وتعالى بعبادتنا نحن وصرف العبادة له وذلك لتلبيس الشياطين على عباد الله، أما وجود الله وخلق الله للسماوات والأرض هذا كان يعرفه المشركون ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥], فلا يحتاج إلى تدليل، ومع ذلك غلط مَن غلط في هذه المسائل.

فمع أن هذه الأصول واضحة جدًا في كتاب الله وفي سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن كثيرًا من الناس قد غلط فيها فحصل فيها التلبيس وتغيير المعاني والمفاهيم.

ولذلك قال الشيخ هاهنا: من أعجب العُجاب وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول.

والأصل هو ما يُبنى عليه غيره، أو ما منه الشيء، والأصل هو أساس الشيء؛ ولذلك شبَّه الله الكلمة الطيبة كلمة التوحيد لَا إِلَهَ إِلَّا الله بشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

فكلمة التوحيد هي الأصل، ثم ينبني عليها بعد ذلك فروعها من العمل والعبادة وغير ذلك.

قال: ستة أصول بيَّنها الله تعالى بيانًا واضحًا للعوام فوق ما يظن الظانون، ثم بعد هذا غلط فيها كثير من أذكياء العالم.

فما غلط فيها العوام فقط، وإنما غلط فيها أذكياء العالم.

ولذلك الآن تجدون الرجل قد بلغ مبلغًا عظيمًا من العلم، يعني صار مفتيًا لإحدى البلاد أو أستاذًا دكتورًا في جامعة من الجامعات، ومع ذلك يطوف حول القبر

ويجوزه، ترى الواحد من هؤلاء يطوف حول قبر البدوي، وينذر للبدوي، ويذبح له، ويستنجد به ويدعوه من دون الله، فهو من أذكياء العالم ولكنه ليس من أزكيائهم، قد ضل في هذا الباب.

ثم قال: إلا أقل القليل، فإذا كان الأمر كذلك وجب التنبيه على هذه الأصول.

الأصل الأول الذي نبدأ به دائمًا ويبدأ به طلبة العلم وعلماء هذه الأمة كما بدأ به أنبياء الله ورسله؟

الأصل الأول الذي ما ينبغي للإنسان أن يفتر عن تعلمه وتعليمه والتدبر فيه والعمل به، لأن إتقانه وتحقيقه يؤدِّي إلى النجاة من النار، يؤدِّي إلى عدم الوقوع في المعاصي، يؤدِّي إلى محبة الله للعبد وإلى اقتفاء أثر النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ثم إلى جنات العُلا، ما هذا الأصل؟

توحيد الله.

ولذلك مَن كان عنده تقصير في توحيد الله كان عنده تقصير وخلل في سائر أموره, إذ كيف يستقيم الظِل والعُود أعوجًا؟ كيف يستقيم ظِل الشيء والعود أعوج؟

الذي يترتب على عدم استقامة العود هو عدم استقامة ظله, فلو كان العود مستقيمًا لاستقام الظل, وكذلك لو كان توحيد المرء مستقيمًا استقامت سائر أموره.

فذكر الأصل الأول، قال:

(المتن)

(الأصل الأول) : إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الذي هو الشرك بالله، وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة، ثم صار على أكثر الأمة ما صار، أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم.

(الشرح)

إذًا الأصل الأول هو الإخلاص؛ فما من نبي يأتي قومه إلا وهو يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله، سواء في أصل العبادة في التوحيد، أو فيما يكون في القلب أثناء العبادة من ترك الرياء والتسميع وغير ذلك، لا يبتغي بعبادته إلا وجه الله تبارك وتعالى.

الإخلاص مأخوذ من مادة خَلَصَ التي تدل على تنقية الشيء وتهذيبه، أي تخليص الشيء من شوائبه.

فالخالِص كالصافي، يقال: هذا عسل خالص، وهذا عسل صافي، ولكن الفرق بينهما:

أن الخالص ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢]، «وكل بني آدم خطاء, وخير الخطائين التوابون».

فهذا فيه تنبيه على أن المرء قد يقع فيما يقدح في توحيده وإخلاصه، فعليه أن يُخلِّص توحيده من هذه الشوائب.

والإنسان المخلِص– نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المخلِصين المخلَصين– هو الموحِّد الذي قصد ربه بالعبادة دون مَن سواه؛ فلم يصرف العبادة لأحد من الخلق فصفَّى عمله بصالح النية عن جميع شوائب الشرك؛ وهو مَن صدق عليه قول الله

تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، فهذا هو الأصل الأول.

إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، أي ألَّا يُعبَد إلا الله تبارك وتعالى، وألَّا يُعبد إلا بما شرع على لسان نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا بالأهواء والبدع، وهذا أصل الأصول.

فليس أصل الأصول الإمامة ومنازعة الحكَّام على الكراسي وغير ذلك، وإنما أصل الأصول رد الناس إلى التوحيد.

كما قلنا: جاء الأنبياء أقوامَهم وعندهم الكثير من المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، كان عندهم الكثير من الظُلم، ومع ذلك صرفوا جُلَّ همهم إلى رد الناس إلى توحيد الله.

موسى لمَّا جاء فرعون كانت قصة موسى من أولها إلى آخرها أن يعبد الله وحده لا شريك له مع ما كان يقوم به فرعون من قتل الذرية ومن استعباد الرجال، ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٤١] أي يستخدمون النساء في الخِدمة، واكتناز الأموال ، وتسخير العباد لعبادته ولخدمته، ومع ذلك ما كان موسى يدعو فرعون إلا إلى توحيد الله وعبادة الله تبارك وتعالى.

لمَّا هلك فرعون ما عاد موسى ليفوز بالكرسي وليجلس مكان فرعون، وإنما أخذ قومه للقاء ربه أو لعبادة ربه تبارك وتعالى في مكان آخر، فاجتاز بهم البحر ليعبد ربه تبارك وتعالى.

إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاء إلى قومه وكان عندهم الكثير من المشكلات، وجاء إلى النمرود الذي كان يدَّعي الربوبية، وكان ظالمًا جبارًا كذلك، ومع ذلك ما ناظره إبراهيم إلا في توحيد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جاء وقومه قد ظَلموا الناس وأخذوا حقوقهم، فقريش فيهم مَن كان يظلم الناس، فكان يقول لهم: **«قولوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله تفلحوا»** كان يريد منهم أن يقولوا كلمة، وأن يعملوا بمقتضاها لأنها أصل الأصول الذي بصلاحه ينصلح كل شيء. هذا ما يريد منهم.

لا يريد منهم لا سلطانًا ولا جاهًا ولا غير ذلك **«قولوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله تفلحوا»** قولوا كلمة لو قلتموها لدانت لكم العرب والعجم، ما هي؟ **«قولوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله تفلحوا»**.

لمَّا عرضوا على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقالوا له: إن كنت تريد مُلكًا ملَّكناك، ما قال: هذه فرصة، أن يسعى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليكون ملكًا عليهم ثم يُغيِّر بعد ذلك.

لأن هذه ليست طريقة الأنبياء. طريقة الأنبياء هي إصلاح القاعدة العامة، إصلاح الشُعوب هذه هي طريقة الأنبياء.

ولذلك يأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد، ما أجابه أحد، فالمسألة ليست بالكَمِّ، فكانت دعوتهم دائمًا إلى إخلاص العبادة لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فهذا هو أصل الأصول كما قلنا وقاعدة الدين، وهذا هو المعترك بين الأنبياء والأمم، ما كان الأنبياء يعارِكون ويحاربون أممهم من أجل مشاكل سياسية أو عسكرية واجتماعية أو غير ذلك، كانوا يحاربونهم من أجل ماذا؟

من أجل التوحيد، ومن أجل ترك العبادات الشركية.

ولـذلك لمـاذا تجـد أهـل البـدع الآن يحـاربون السـلفيين؟ هـل يحـاربونهم لأنهـم ينازعونهم في كُرسي؟ في سلطان؟ في منصب؟ هل وجدت عالمًا من علماء السلفية يسعى أن يكون مفتيًا؟ أو أن يكون رئيسًا للدولة؟

ما وجدنا واحدًا يسعى إلى ذلك، ومع ذلك السلفيون عند أهل البدع من ألدِّ الأعداء لهم، لماذا؟ لأنهم يريدون منهم أن يتركوا عبادة القبور، وأن يتركوا الموالد والشركيات، وأن يعودوا إلى دين ربِّ العالمين يفهموه على ما تركه لنا السلف الصالحون، فلن يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها.

فكان العداء اللدود لِمَن يدعوا إلى ذلك، كما كان العداء لأنبياء الله ورُسلِه. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] هذه رسالة الأنبياء والُرسل.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦],

قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

يعني الذي يريد بيِّنة على ما حدث للمكذبين المشركين ما عليه إلا أن يسير في الأرض وأن ينظر في قصص هؤلاء في كتاب الله وفي سُنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليعتبر بحال هؤلاء.

فهذا هو الأصل الأول.

وإذا حقَّق المرء هذا الأصل، فلم يُشرك بالله شيئًا وكان موحِّدًا، ما جزاؤه عند الله؟

أعظم جزاءٍ أن يدخلَ الجنة وألا يُعذَّب في النار، فمَن قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله خالصًا من قلبه حرَّم اللهُ جسده على النار، تحريماً أبدياً أو تحريماً أمدياً أي لا يخلد فيها إن دخلها.

خالصًا من قلبه: أي كان موحِّدًا بقلبه ولسانه وجوارحه، فإن التوحيد الذي في القلب لا بد أن يظهر أثره على اللسان وعلى الجوارح.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عند مسلم من حديث جابرٍ قال: **«مَن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة, ومَن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»**.

ومن ثمرات التوحيد أنه يعصم دم العبد ومالَه وعرضه في هذه الحياة الدنيا يجعله مطمئنًا في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

هل قال الله تبارك وتعالى في هذه الآية: فلنحيينه حياة طيبة في الدنيا؟ لا بل أطلقها.

فلنحيينه حياة طيبة في الآخرة؟ لا بل أطلقها.

إذًا الذي يوحِّد الله تبارك وتعالى مع إتيانه بالعمل الصالح هذا حياته طيبة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩].

إذًا الإيمان شرط في دخول الجنة وفي رِضا الله تبارك وتعالى.

ويكفي في بيان فضل التوحيد وبيان عاقبة الشرك أن نذكر حديث البطاقة:

رجل من أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤتى به يوم القيامة على رؤوس الخلائق والأشهاد، ينادِي الله تبارك وتعالى على هذا الرجل، وهو رجل من هذه الأمة يخرج من بين الناس ويُعرَض له تسعة وتسعون سِجِّلًا من الذنوب، كل سِجل مد البصر. هذه السِجلات توضَع في كِفة.

يقول الله تبارك وتعالى لهذا الرجل: هل لك حاجة؟ هل ظلمك كتبتي؟ وهذا من تمام عدل الله وإقامة الحُجَّة على الخلق، فيقول العبد: لا يا رب، فهو يُقِّر بما عنده من الذنوب ولا يجادِل أمام الله تبارك وتعالى، وإنما يُقِّر؛ لأنه يعلم أنه لن ينفعه إنكاره.

يقول الله ﷻ له: بلى إن لك عندنا حاجة، فيُخرِج الله له بطاقةً مكتوب فيها: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، قالها هذا الرجل من قلبه بإخلاص ويقين وإيمان، ولكن كانت تغلبه نفسه فكان يقع في هذه الذنوب، ولكن كان موحِّدًا غير مشرك في عبادته لله تبارك وتعالى، وإنما يغلبه ذنبه.

فكأنه استقلَّ هذه البطاقة، فقال: ما تفعل هذه البطاقة أمام السِجلات؟ فتوضَع البطاقة في كِفة، وتوضَع السِجلات في كِفة، فتطيش السجلات، ولا يثقُل مع اسم الله شيء، فيدخل الجنة.

لماذا؟ لأنه كان موحِّدًا.

هب أن هذا الرجل كان مصليًا، حاجًا بيت الله ومعتمرًا كل عام، كان منفقًا على الفقراء والمساكين والأرامل، كان يسعى في حاجة أهله وفي حاجة الخلق، وكان يصرف العبادة لغير الله.

كما هو حال بعض الناس: يعني يذبح لغير الله، وفي الموالد يذهب إلى البدوي والحسين ويدعوهم يقول: يا فلان أو يا سيدة أو غير ذلك. هذا لو مات على ذلك تطيش كل أعماله ويدخل النار عياذاً بالله.

انظر هذا جاء بالذنوب العظيمة وكان معه أصل التوحيد، فغفر الله له.

وهذا جاء بأعمال عظيمة كالجبال ولم يكن موحِّدًا، لا ينفعه ذلك.

ولذلك عائشة رضي الله عنها لمَّا سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عبد الله بن جُدعان، و كان يقوم بالأعمال العظيمة في الجاهلية؛ فكان يقري الضيف، ويحمل

الكَل، ويعين على نوائب الدهر، وكان كريمًا جوادًا، كان يُضرب به المَثل في الجُود والكرم.

سألت عائشة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله هل نفعه ذلك؟ هل هذه الأمور نفعت عبد الله بن جُدعان؟ قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا؛ إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»** أي ما كان موحدًا، وإنما كان مشركًا.

فهذا يبين لنا أهمية إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى.

إذا عرفنا الإخلاص وأهميته كان واجبًا علينا أن نعرف الشرك.

واجب علينا أن نعرف الإخلاص ليقوم في قلوبنا ولنعمل به، وواجب علينا أن نعرف الشرك لكي نحذره.

ولذلك ذكر الله الكُفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله، فقال: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وهذا معنى لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله أي لا معبود بحق إلا الله.

لا إله: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] نفي عام: ننفي الألوهية عن كل الآلهة الباطلة .

إلا الله: إثبات خاص فنُثبِت الألوهية المستحقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ, ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] هذه تخلية؛ تخلية القلب من كل الشوائب من شِرك وغير ذلك.

إلا الله: تأتي التحلية ونملأ القلب بعد ذلك بالتوحيد.

فإذا عرفت التوحيد وجب عليك أن تعرف ضده؛ لأن الدين تسبيح وتحميد، ونفي وإثبات، فكما تعرف التوحيد تعرف الشرك، وكما تعرف السُّنَّة تعرف البدعة، وكما تعرف الطاعة تعرف المعصية؛ حتى تفعل هذه وتتجنَّب تلك.

فما الشرك؟

قال: وبيان ضده الذي هو الشرك بالله.

الشِرك مأخوذ من مادة شَرَكَ، كلمة الشرك هذه مأخوذة من مادة شَرَكَ،والقرآن نزل بلسان عربي مبين فلا بد أن تعرف أصل هذه الكلمات من جهة اللغة وما أضفاه عليها الشرع فصارت لها معاني شرعية.

فهو مأخوذ من مادة شَرَكَ التي تدل على مقارنة وخلاف انفراد. إذًا الشرك خلاف الانفراد، ومنه الشَرِكة, يقال: فلان دخل مع فلان في شركة، لأنه حصل اقتران، وبعد أن كان فردًا صار مشاركًا لغيره.

فالمشرك مَن جعل لله شريكًا في مُلكه وعبادته.

والشرك نوعان:

- شرك أكبر: وهو الذي يقدح في أصل الإيمان؛ أن يجعل المرء شيئًا مما لله لغير الله يقدح في أصل الإيمان: كأن يذبح لغير الله، أو أن يدعو غير الله، أو أن يتوكل على غير الله، فهذا شرك أكبر يقدح في أصل الإيمان.

وهذا النوع من الشرك لا يُغفر إلا بالتوبة، فمهما قام المرء بالأعمال الصالحة لا يغفر شركه، ولا بد أن يتوب إلى الله تبارك وتعالى، وهو كل شرك أطلقه الشارع.

فلفظة الشرك إذا جاءت في القرآن والسُنة فالأصل أنها تنصرف إلى ماذا؟ إلى الشرك الأكبر.

قلنا: وهو- أي الشرك الأكبر- منافٍ للتوحيد منافاة مطلقة، كأن يجعل شيئًا من العبادة للأصنام والآلهة الباطلة.

- والنوع الثاني من الشرك: شرك أصغر وهو كل عمل قولي أو فِعلي يقدح في كمال الإيمان الواجب ولا يقدح في أصله.

يعني الشرك الأصغر لا يُخرج المرء من الإسلام إلى الكفر، ولكنه يُنقِص إيمانه، فلا ينافي أصل التوحيد

مثاله: كالحلف بغير الله، فالذي يقول: والنبي، والكعبة، والحسين، ورحمة فلان: هذا شرك أصغر.

الذي يقول: لولا البط، أو لولا الأوز في البيت لسرق السارق البيت، لا بل لولا الله تبارك وتعالى الحافظ لسرق السارق البيت، فهذا شرك في الألفاظ، وهو شرك أصغر.

وكيسير الرياء: يسير الرياء أن يدخل الإنسان في الصلاة ويزين له الشيطان أحيانًا في موضع من صلاته أن يُحسِّن صلاته من أجل رؤية الناس، فهذا كذلك شرك أصغر.

وكبعض الألفاظ: ما شاء الله وشئت فهذا كذلك من الشرك الأصغر.

والشرك الأكبر والأصغر خطرهما عظيم، يكفي أن الشرك الأصغر هو أعظم جُرمًا من أكبر الكبائر: أعظم جُرمًا من الزنى والسرقة وقتل النفس.

الحلف بغير الله أعظم جُرمًا من هذه الذنوب، لماذا؟ لأن هذا يتعلق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يتعلق بحق عبد.

ولذلك جاء عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلى من أحلف بغيره صادقًا.

أريد منك أن تتأمل في هذا القول ليتبين لك خطورة الشرك. قال: لأن أحلف بالله كاذبًا، أي: لأن أقول: والله ما فعلت كذا وأنا فعلت، هذا أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقًا أي أن أقول: والحسين ما فعلت وأكون ما فعلت.

أيهما أحب إلى ابن مسعود؟

الأول أن يحلف بالله كاذبًا، لماذا؟ لأن غاية الحلف بالله كاذبًا أنه وقع في معصية، وأما الحلف بغير الله وإن كان صادقًا وقع في الشرك وخطورة الشرك أعظم من خطورة المعصية.

والشرك خطره عظيم، ولذلك نبَّه عليه كل أنبياء الله ورسله.

بل يكفي إذا أردت أن تعلم خطورة الشرك أن تتأمل حال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

مَن الذي كسَّر الأصنام بيده؟ إبراهيم.

مَن الذي بنى بيت الله؟ إبراهيم.

مَن الذي ناظر النمرود بن كنعان في توحيد الله؟ إبراهيم.

مَن الذي ناظر أباه وقومه الصابئين في توحيد الله وكانوا يعبدون الكواكب والنجوم؟ إبراهيم.

إذًا قام في قلب إبراهيم أصل التوحيد وكماله، ومع ذلك يخشى على نفسه وعلى بنيه يقول: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

سبحان الله! إبراهيم لا يطمئن على نفسه، ولذلك صدق إبراهيم التيمي لمَّا سمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وتفكر في حال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: فمَن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟

إذا كان إبراهيم يقول هذا الكلام فمن يطمئن إلى قلبه وإلى ما عنده من التوحيد، بل ينبغي على المرء دائمًا أن يسأل الله تبارك وتعالى الإخلاص في القول والعمل والثبات على ذلك حتى يلقاه.

إذًا لا بد من معرفة الشرك لأنه يناقض التوحيد.

قال: وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل.

إذًا أكثر آيات القرآن في بيان التوحيد وما يضاده، وأعظم الآيات في القرآن أجرًا ومكانة عند الله تبارك وتعالى هي التي عالجت قضية التوحيد والشرك.

أعظم سورة في القرآن هي سورة الفاتحة لمَّا قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لسعيد بن المُعلَّى: «أتدري أي سورة أعظم في القرآن؟», ثم بيَّن في آخر الحديث أنها الفاتحة.

وأعظم آية في القرآن آية الكرسي، وكلها خلصت للكلام عن الباري تعالى وصفاته.

سورة تعدل قراءتها ثُلث القرآن هي سورة الإخلاص.

لو تدبرت في السورة والآية وسورة الإخلاص لوجدت هذه الثلاثة ما تكلمت إلا عن الله وعن توحيد سبحانه.

فأكثر القرآن في بيان هذا الأصل؛ لو تدبرت سورة البقرة لوجدت أنها تبدأ بالتوحيد والكلام عن أصناف الناس الثلاثة: المؤمنين والمنافقين والمشركين, ثم بعد ذلك تتكلم على بعض الأحكام, ثم تُذكِّر بالإيمان بالله واليوم الآخِر، ثم عن بعض الأحكام، كالصيام والحج والدَين ، ثم تُختم بالكلام على الإيمان بالله وملائكته ورسله وغير ذلك.

فقال: وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة:

أبلد الناس يفهمون أن القرآن ما جاء إلا بالتوحيد.

فأول فِعل في القرآن فعل العبادة﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٢ – ٥] هذا أول فِعل.

وإذا ذُكرت العبادة في القرآن فالمقصود بها توحيد الألوهية، أي جَعْلُ العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أول أمر في القرآن ما هو؟ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة: ٢١] الأمر بالعبادة كذلك وتحقيق معنى إِلَهَ إِلَّا الله أي: لا يستحق العبادة إلا الله.

أول نهي في القرآن؟ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

أول نهي في القرآن: نهي عن الشرك، ما جاء أول نهي عن السرقة ولا الظلم ولا غير ذلك، وإنما جاء الأمر الأول أمر بالعبادة، والنهي الأول جاء في النهي عن الشرك, كل الوصايا التي جاءت في القرآن بدأت بالوصية والأمر بتوحيد الله.

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦] قال الله جل وعلا: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [الأنعام: ١٥١].

إذًا كل وصية في القرآن بدأت بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك.

قال: وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة.

فالقرآن لكثرة هذا البيان كله توحيد:

- إما أن يبيِّن أصل التوحيد،
- وإما أن يبيِّن جزاء أهله،
- وإما أن يبيِّن ما يضاده.

وأما السُنَّة فكثيرة جدًا, ولذلك عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التوحيد بابًا قال فيه: باب حماية المصطفى لجناب التوحيد، عقد الباب مرتين؛ لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حمى جناب التوحيد من جهة الشركيات الفعلية، ومن جهة الشركيات القولية.

الشركيات الفعلية: كالذبح والنذر وغير ذلك.

والشركيات القولية: كالحلف بغير الله، وكقول: ما شاء الله وشئت وغير ذلك.

لأن التوحيد هو الأصل الذي من أجله خلق الله الإنس والجن, ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي إلا ليوحدون.

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ [الأحقاف: ٥] أي لا أحد أضلُّ ﴿ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥، ٦].

بل قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥] لأن التوحيد لا محاباة فيه لأحد، مَن أشرك دخل النار.

إبراهيم عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أبو الأنبياء يشفع في أبيه يوم القيامة فلا يُشفَّع، لا يقبل الله شفاعته في أبيه.

محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يشفع في عمه فلا يُشفَّع الشفاعة التي يخرج بها عمه من النار ولن يخرج من النار, وإن كان أهون أهل النار من أهل الشرك عذابًا، لأنه لا محاباة في التوحيد.

بخلاف سائر المعاصي: فالمرء إذا دخل الجنة شفع في أقربائه فأخرجهم من النار إن كانوا عصاة، وأما إن كانوا مشركين فلا يخرجون من النار أبدًا، لأن الله قال ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

ثم مع بيان هذا الأصل العظيم في القرآن والسُنة من الأمر به والنهي عن ضده، ومن بيان حال الأمم السابقة وذِكر الكثير من القصص، وهذا القرآن يقرأُه الناس ليل نهار, ويُختَم أكثر من مرة في رمضان، بل يقرأُه بعض مَن يشرِك بالله،بعض مَن يذبح لغير الله وينذر لغير الله.

قال: ثم لمَّا صار على أكثر الأمة ما صار: أي من صرف العبادة لغير الله.

أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين:

يعني لو قلت لرجل مشرك: يا أخي دعاؤك البدوي، وذبحك عند البدوي، وطوافك عند قبر البدوي: هذا شِرك بالله، ماذا يقول لك؟

يقول: أنت تتنقَّص الصالحين، أنت تُبغِضهم ولا تُحبهم.

فأظهر الشيطان لهم التوحيد في صورة تنقص الصالحين وفي التقصير في حقهم .

فقل لي بربك: هل لمَّا حطَّم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ صنم اللات كان متنقِّصًا للصالحين؟

اللَّات -بتشديد التاء- كان رجلًا صالحًا يلِّت السويق للحجيج، يصنع الطعام لهم.

فلما مات صنعوا له صنمًا وعكفوا عليه . ماذا فعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لمَّا دخل مكة في فتح مكة؟

كسَّر الأصنام ومنهم صنم اللات، فهل لمَّا كسَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ صنم اللات انتقص الصالحين؟ هل لمَّا حارب نوح عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الأصنام التي صنعوها لودٍّ

وسواع ويغوث ويعوق ونسرًا لمَّا كسَّرها أو دعا الناس إلى عدم عبادتها كان نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منتقِّصًا للصالحين؟

ما كان منتقصًا للصالحين، وإلا فهؤلاء الصالحون يتبرؤون من عابديهم يوم القيامة:

الله ﷻ يقول لعيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦]؛ لأن النصارى يعبدون المسيح ويعبدون أمه.

ماذا يقول المسيح ؟﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦].

ماذا قال لهم المسيح؟﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٧], هذا هو الذي دعاهم إليه المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الملائكة يتبرؤون من عابديهم يوم القيامة ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ * قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾

فالشيطان أظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم، وأظهر التوحيد والإخلاص في صورة انتقاص الصالحين، فليس التوحيد انتقاصًا للصالحين؛ بل التوحيد معرفة ما يجب لله تبارك وتعالى وما يجب للعبد ولو كان صالحًا ولو كان نبيًا من الأنبياء.

وما ينبغي للمرء أن يتجاوز بالمخلوق الحد الذي حدَّه الله تبارك وتعالى.

ولـذلك الرجـل لمـَّا قـال للنبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مـا شـاء الله وشـئت، قـال النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«أجعلتني لله نِـدًّا»** أي مسـاويًا نظـيرًا؟ هـذا لا ينبغـي إلا أن يكـون لله تبارك وتعالى.

فلما كان هذا الأصل بهذه الصورة ووقع فيه مَن وقع، وقع في الشرك وغفل عنه أو غفـل عـن معنى التوحيـد وأهمية التوحيـد كـان عـلى الإمـام أن يبـدأ بـه لأنـه أصـل الأصول، وما يأتي بعده من الأصول تبعٌ له مترتب عليه.

۞۞۞۞۞

الأصل الثاني

(المتن)

الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع في الدين والنهي عن التفرق، فبيَّن الله هذا بيانًا شافيًا تفهمه العوام، ونهانا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين، ونهاهم عن التفرق فيه.

ويزيده وضوحًا ما وردت به السُّنَّة من العجب العجاب في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين، وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون.

(الشرح)

مدار الأصل الثاني كما سمعنا على الاجتماع في الدين وعدم التفرق فيه.

وهذا الأصل قد دلت عليه الكثير من الآيات والأحاديث:

من ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فالأمر بالاعتصام يلزم منه النهي عن الفرقة، فإذا انضم إليه ذِكرُ ذلك زاد الأمر توكيداً.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، أي لا تسيروا بسيرتهم فينالكم ما نالهم، فلكم فيهم عبرة.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فالنفي الوارد في الآية يقتضي ذم التفرق والحث على الاجتماع.

وقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى:

١٣]، فالاجتماع وعدم الفرقة سبيل الأنبياء والمرسلين الذي شرعه الله تعالى للناس أجمعين.

إلى غير ذلك من الآيات التي تنوَّع أسلوبها في الأمر بالاجتماع والنهي عن التفرق.

ومما ينبغي أن يُعلَم أن الجماعة جماعتان:

- جماعة منهج: وهي المقصودة هاهنا، ومعناها أن يتحد الناس وأن يجتمعوا على المنهج الذي ترك عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه، وهو منهج السلف الصالح، ولذلك دائمًا نقول: كتاب وسُنة بفهم سلف هذه الأمة، فهذه الجماعة الأولى.
- وأما الجماعة الثانية: فهي جماعة الأبدان، أن يجتمع الناس بأبدانهم على أمير يحكمهم ويقيم فيهم دين الله تبارك وتعالى، يسمعون له ويطيعون في غير معصية الله، فإن أمر بطاعة فبها ونعمت، وإن أمر بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، ولا ينزعون يدًا من طاعة، ولكن يصبرون كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالمقصود هاهنا: الأمر بالاجتماع في الدين: أي بأن يكون اجتماع الناس على ما ترك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه الصحابة.

فجاءت الكثير من الآيات الآمرة بالاجتماع في الدين الناهية عن التفرق فيه المبينة ما آل إليه مَن تفرَّق في دينه قبل أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فهذه الآية أمر من الله تبارك وتعالى بالاعتصام بحبل الله.

وما حَبْلُ الله؟ كتاب الله كما فسّره نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهو الصراط المستقيم.

ثـم قـال: ولا تتفرقـوا، فـالتفرق نتيجـة لعـدم التمسـكِ بكتـاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فتجد هاهنا الله تبارك وتعالى أمر ونهى، أمر بالاجتماع وهذا إثبات، ونهى عن التفرق وهذا نفي، والدين قائم على النفي والإثبات.

قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٥] يعني الأمم السابقة ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] فهذا هو الذي يُذم= جاءت البينات، جاء القرآن، جاءت سُنة النبي العـدنان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيِّنـة واضـحة جليـة، ومـع ذلـك يـترك الأبعـد السُـنَّة ويـترك الكتاب ويتَّبع رأى عالم من العلماء أو شيخ من المشايخ، أو يتَّبع هواه، أو يقلِّد واحدًا غير معصوم في خلاف ما جاءت به السُنَّة، فهذا هو الذي يؤدِّي إلى غضب الله تبارك وتعالى.

ولذلك قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ما هذا العذاب؟ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] تبيض وجوه أهل السُنَّة وتسود وجوه أهل البدعة كما جاء عن عبد الله بن عباس وغيره من المفسرين من أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وغيرهم.

الذين تبيض وجوههم يوم القيامة هم أهل السُنَّة المتابعون لِمَا كان عليه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصـحبه، والـذين تسـود وجـوههم أهـل البدعـة المشـاقون للنبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وللمنهج الذي ترك عليه أصحابه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وهذه الآية فيها من الوعيد ما فيها، من الوعيد على التفرق

في الدين وعلى ترك الكتاب والسُنة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وفي قراءة: إن الذين فارقوا دينهم.

فالذي يترك الكتاب والسُنة ويعرض عنهماقد يكون مآله إلى مفارقة الدين كما هو موجود في بعض البدع الكُفرية.

بعض الناس ترك الدين وابتدع في دين الله، فبدأت البدعة صغيرة، ثم بعد ذلك كبرت هذه البدعة وتمددت حتى آلت بصاحبها إلى أن خرج من دين الله عياذًا بالله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩] هو الذي يحكم بينهم ويحكم فيهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] هذا هو الذي شرعه الله ﷻ لجميع الأنبياء والرُسل.

بدأ بأول الرسل وهو نوح عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فإن نوحًا أول الرُسل، وآدم أول الأنبياء، قال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] لا يفارِق ما جاء به نوحًا ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣] ما الذي شرعه الله ووصى به الأمم السابقة ووصى به هذه الأمة؟ ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فلا يجوز للمسلمين أن يتفرقوا في دينهم، بل يجب عليهم أن يكونوا أمة واحدة، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ولنا وقفة مع هذه الآية؛ لأن بعض الناس يُفسرها على غير الوجه الصحيح:

الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] فيظن هذا أن المراد أن تجتمع الأمة وإن اختلفت عقائدها، وإن كان هذا صوفيًا، وإن كان هذا

أشعريًا أو كان معتزليًا خارجيًا، خالف ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه!! ومع كل ذلك ينبغي علينا أن نتحد، لن نتحد، لماذا؟

لأن هذا التفسير ليس هو تفسير الآية، فلو فتحت أي كتاب من كُتب التفسير لوجدت معنى الآية: إن هذه ملتكم ملة واحدة أي التوحيد ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

إذًا متى تجتمع الأمة؟ ومتى تكون الأمة أمة واحدة؟ إذا عادت إلى توحيد ربها تبارك وتعالى فلم تُشرك به شيئًا، وتابعت نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وليس المقصود بالآية أن تجتمع الأمة بأبدانها مع الفُرقة في القلوب، هذا ليس المقصود من الآية؛ وإنما المقصود: أن يعود الناس إلى توحيد ربهم تبارك وتعالى، فلا يجوز لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تتفرَّق في عقيدتها وفي عبادتها.

قد يقول قائل: ولكن الله تبارك وتعالى بيَّن في كتابه أن الاختلاف من طبيعة البشر وأن الاختلاف لا بد أن يقع، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

نقول: حقاً الاختلاف من طبيعة البشر، ولكن هذا الاختلاف ينبغي أن يُحسَم.

قد يغيب عنك الدليل ويتضح لي، قد تعلم أنت من الكتاب والسُنة ما لا أعلم أنا فيحدث الخلاف.

ماذا نفعل هاهنا؟ لا بد من حسم الخلاف، أنت تقول: هذا يجوز، وأنا أقول: لا يجوز، أنت قول: هو سنة، وأنا أقول: بل بدعة. لا بد من حسم هذا الخلاف حتى نجتمع مرة ثانية، كيف نحسم الخلاف؟ بأهوائنا؟ بعقولنا؟ بتقليدنا؟ بعصبيتنا؟ بتبعيتنا لجماعة من الجماعات؟ لا.

قال تعالى في حسم الخلاف: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

والمتأمل في هذه الآية يجد الله تعالى يقول: فإن تنازعتم، أي إن وقع بينكم تنازع لخفاء الدليل أو عدم ورود الدليل لكم ماذا نصنع؟ ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] الردُ إلى الله ردٌ إلى كتابه، والردُ إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون في حياته، وإلى سُنَّته بعد موته.

لمَّا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيًا كان يفصل بين الصحابة في النزاع:

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لـمَّا سمع رجلًا يقرأ سورة الفرقان بخلاف ما سمعها من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذه وذهب به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليفصل بينهما في النزاع، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر: **«كيف قرأت؟»** فقرأ عمر، وسأل الصحابي الآخَر: **«كيف قرأت؟»** فقرأها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كلا القراءتين صحيح»** لماذا؟ لأن القرآن نزل على سبعة أحرف.

فكان الذي يفصل في النزاع مَن؟ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال هاهنا: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩] أي أن هذا هو سبيل من آمن بالله واليوم الآخِر: أن يرد النزاع دائمًا إلى الكتاب والسُنة.

ما جزاؤه وما عاقبته؟ قال: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩ أي أحسن مآلًا وعاقبة.

فالذي يجعل رد النزاع وفض النزاع دائمًا إلى الكتاب والسُنة يكون سبيله ومآله كما أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه.

فيجب علينا أن نجتمع كما قلنا في عرض اختلافنا على كتاب الله وسُنة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سائر أمورنا: في مسائل الفقه، في مسائل الاعتقاد، في مسائل المعاملات، في مسائل الأخلاق.

ومَن أخطأ يجب عليه أن يرجع، ومَن أخطأ وبان لك خطؤه لا يجوز لك أن تتابعه ولا أن تظن فيه العصمة، فالعصمة لا تكون إلا في كتاب الله وفي سُنة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإجماع السلف الصالحين، أما غير ذلك فكل يُؤخَذ منه ويُرد.

ولذلك الأئمة رحمهم الله أعني الأئمة الأربعة جاء عنهم ما يبيِّن هذا المنهج، جاء عن كل واحد منهم أنه كان يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي، إذا وجدتم قولي يخالف سُنة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فاضربوا بقولي عُرض الحائط، وخذوا بسُنة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لا تُقلِّدوا مالكًا ولا الثوري ولا الشافعي وخُذوا من حيث أخذوا.

لا تقلدني فإنما أقول القول اليوم وأرجع عنه غدًا كما يقول أبو حنيفة رحمه الله.

مالكٌ يقول: كل يؤخذ منه ويُرد إلا صاحب هذا القبر، يعني النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فما كانوا يتعصَّبون لآرائهم، وإنما كانوا دائمًا يجعلون نُصب أعينهم الرد إلى كتاب الله وإلى سُنة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قد يقول قائل: ولكن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«اختلاف أمتي رحمة»**، فالاختلاف ليس مذمومًا، وقال كذلك: **«أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»**؟

نقول: أولًا: ثبِّت العرش ثم انقش، هذه الكلمة كان يقولها الشيخ الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ كثيرًا. إذا ذكر أحد جلسائه أو مناقشيه له حديثًا يقول: ثبِّت العرش ثم انقش، فما معنى هذا؟

يعني هذا النقَّاش إذا أراد أن يدهن هذا المنبر أو أن يدهن الكرسي ماذا يصنع؟

لو أن هذا الكرسي كان يتحرك كثيرًا غير ثابت، فلن يستطيع أن يقوم بعمله، فماذا يصنع؟ يثبِّته أولًا ثم بعد ذلك يقوم بما يقوم به من العمل، فهذا معنى :ثبِّت العرش ثم انقش.

وهنا كذلك الشيخ يريد أن يقول: أثبت أولًا صحة هذا الحديث ثم ابنِ عليه ما تريد أن تبني من دلالات، فهل هذا الحديث صحيح من قول النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو ما يُنسَب إلى النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«اختلاف أمتي رحمة»**، أو: **«أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»**؟

أما من جهة السند فلا يصح.

قال الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ:

الجواب يعني عن الحديثين من وجهين:

- الأول: أن الحديث لا يصح، بل هو باطل لا أصل له.

قال العلامة السُبكي: لم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع.

قال الألباني: قلت: وإنما ورد بلفظ: **«اختلاف أصحابي لكم رحمة»**، وبلفظ: **«أصحابي كالنجوم، فبأيِّهم اقتديتم اهتديتم»**، وكلاهما لا يصح.

الأول: واهٍ جدًّا، والآخَر: موضوع، وقد حقَّقت القول في ذلك كله في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

- والثاني: أن الحديث مع ضعفه مخالف للقرآن الكريم، ولكن لا بأس من أن نسوق بعضها على سبيل المثال؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فنهى هاهنا عن النزاع والاختلاف، والحديث يقول: **«اختلاف أمتي رحمة»**.

وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ ([الروم: ٣١– ٣٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨ – ١١٩] فإذا كان من رحم ربك لا يختلفون، وإنما يختلف أهل الباطل؛ فكيف يعقل أن يكون الاختلاف رحمة؟!

فثبت أن هذا الحديث لا يصح لا سندًا ولا متنًا.

إذًا هذا الحديث لا يصح لا من جهة السند ولا من جهة المتن.

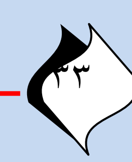
فإن قيل: ألم يكن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختلفون؟ نقول: كانوا يختلفون اضطرارًا.

ما معنى اضطرارًا؟ أي كانوا يختلفون بسبب غياب الدليل، أو بسبب الخطأ في الاجتهاد، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، فإن أخطأ فله أجر»** فالمجتهد بين الخطأ والصواب.

فالصحابة كانوا يُخطِئون أو يختلفون اضطرارًا، ولكنهم كانوا ينكرون الاختلاف ويفرون منه ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا.

كان الواحد من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بُيِّن له الحق يرجع:

فهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنه وعن أبيه كان يطوف ذات يوم مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وعن أبيه، وكان معاوية أمير المؤمنين وقتئذ، فماذا كان يصنع معاوية ؟ يتمسَّح بكل جدران البيت: كلما مر على جدار من جدران البيت من جدران الكعبة الأربعة تمسَّح به، فقال له ابن عباس: هذا لا يجوز، إنما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستلم الركن اليماني والحَجر.



كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستلم الركن اليماني ولا يُقبِّل إنما يستلم، أي يضع يده عليه، وهذا مما يحط الذنوب كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما الحَجر فكان يستلمه وكان يسجد عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُقبِّله.

فقال ابن عباس لمعاوية: لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك، إنما كان يستلم الركن اليماني والحَجر، فقال معاوية: ليس في البيت شيء يُهجَر، فقال ابن عباس: لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة، فقال معاوية: صدقت، وكفَّ عن فِعله.

فكانوا أحيانًا يختلفون اضطرارًا، ولكن إذا بُيِّن لهم الحق رجعوا.

كان بعضهم لا يعتبر الربا إلا نوعًا واحدًا: ربا النسيئة وهو ابن عباس، فلما بُيِّن له حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ربا الفضل رجع. رضي الله عن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما الآن فالمُقلِّدة مهما بان لهم من الدليل فإنهم يتعصَّبون ويتأولون، ولا يتركون قول معظِميهم، وإنما يتركون ما جاء في القرآن العظيم وسُنة النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم إن هذا الحديث كما قلنا باطل من جهة المعنى **«اختلاف أمتي رحمة»** والله عَزَّ وَجَلَّ بيَّن أن الاختلاف عذاب وفُرقة.

ولذلك قال الشيخ الفوزان في بيان أن هذا الحديث لا يصح من جهة المعنى ولا من جهة السند: هذا الحديث يُروى ولكنه ليس صحيحًا، والاختلاف ليس رحمة، الاختلاف عذاب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] فالاختلاف يُشتِّت

القلوب، ويُفرِّق الأمة، ولا يمكن للناس إذا صاروا مختلفين أن يتناصروا ويتعاونوا أبدًا، بل المختلفون يتمنى الواحد منهم هزيمة الآخَر ولو كان مسلمًا بسبب الخلاف الذي وقع بينهم.

بل يكون بينهم عداوة وعصبية لفرقهم وأحزابهم ولا يتعاونون أبدًا، وتجد بعضهم في هذه التي تسمى بالأحزاب السياسية والتي ما وُضِعت في الأمة إلا من أجل تفريق الأمة، وهي سُنة فرعون جعل قومه أحزابًا وشِيَعًا، فهذه ليست من سُنة المسلمين، وإنما المسلمون أمة واحدة وجماعة واحدة، وهي التي ينبغي أن تكون على ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

قال: إنما يتعاونون إذا اجتمعوا واعتصموا بحبل الله، متى يتم التعاون والاجتماع؟ إذا اعتصموا بحبل الله وبسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: وهذا هو الذي أوصى به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: **«إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، وأن تناصحوا مَن ولاَّه الله أمركم»** هذه الثلاث يرضاها الله لنا.

والشاهد منها: قوله: **«وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا»**.

هل وقعت الفُرقة بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

نعم لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن هذه الأمة لا بد أن تفترق. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فِرقة»** فاليهود لم يكونوا فِرقة واحدة، وإنما كانوا إحدى وسبعين فِرقة **«وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فِرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فِرقة»**.

هذه الأمة ستفترق كونًا وقدرًا. هذه الفرقة أمر لا يحبه الله تبارك وتعالى، ولكن قدَّره لماذا؟ ابتلاءً واختبارًا للعباد، ليفر المرء من هذا الافتراق، و يعتصم بما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه.

قال: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فِرقة، كلها في النار» وليس معنى ذلك التكفير، ولكن هذه الفِرق متوعَّدة، قد يُعذِّبها الله تبارك وتعالى بسبب افتراقها ومخالفتها للدين، وقد يعفو ويصفح. قال: «كلها في النار إلا واحدة" **وهي الفِرقة الناجية، والطائفة المنصورة.**

فالصحابة لَمَّا سمعوا ذلك، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ لم يقولوا ومَن هم يا رسول الله؛ لأنهم لو قالوا ومَن هم فقد أرادوا أشخاصًا وأفرادًا، وإنما أرادوا وصفًا يتصف به المرء لينجو، فقالوا: وما هي يا رسول الله؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن كان على ما مِثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» هذا هو الذي ينجو، «لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض» كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث حذيفة رضي الله عنه ، الفتنة مكشوفة جلية أمامه، وإن غمضت ولُبِّست على غيره.

وذلك بسبب تمسكه بالكتاب وبالسُنة وبما كان عليه سلف الأمة لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، مَن هؤلاء؟ «مَن كان على ما مِثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

ولذلك دائمًا كما قلنا: ندندن ونقول: كتاب وسُنة بفهم سلف الأمة؛ لأن هذا الفهم فيه العصمة، ولأنه هو الذي زكاه الله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفهمهم أسلم وأعلم وأحكم، ويضعون دائمًا نُصب أعينهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

لا يعارضون كتاب الله ولا سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا بعقولهم ولا بأهوائهم، لا يخرج فيهم مَن يقول: يكفينا القرآن لا نعمل بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أقوامٍ يأتون بعده وهم الذي يُسمون بالقرآنيين، الذين يريدون أن يكتفوا بالقرآن دون السُنَّة، وكذبوا بل أرادوا ردَّ الدينَ كلَّه.

كان عمران بن الحصين يذكر حديثًا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال بعض جلسائه: دعنا من هذا يكفينا القرآن، فقال عمران: ادُنُ مني. يا هذا: هل تجد في القرآن الظهر أربعًا؟ العصر.أربعًا؟ العشاء أربعًا تجهر في اثنتين وتسر.في اثنتين؟ هل تجد في القرآن الطواف سبعًا؟

يا هذا: إما أن تتَّبِع ما جئنا به عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ليصيبنك الضلال، أو كما قال عمران رضي الله عنه وعن أبيه.

الذي يكتفي بالقرآن دون السُنَّة هذا لا بد أن يضل وأن يقع في الضلال، وإنما أراد الطعن في القرآن نفسه،ولكنه لم يجرؤ على الطعن في القرآن صراحة، فبدأ بالطعن في سُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنهانا الشرع أن نكون كالذين تفرَّقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا، ولنا فيهم عظة وعبرة، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرق فيه.

قال: ويزيده وضوحًا ما وردت به السُنَّة من العجب العجاب في ذلك، ثم صار الأمر الآن إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين:

صار الآن عند الناس التشعبات والافتراقات في الدين في الأصول والفروع صار عياذًا بالله هذا عند المتأخرين صار هو الفقه والعلم في الدين.

يقولون: إن التفرق يعني إعطاء الحرية للناس وعدم الحجر عليهم، ولا يجوز لك أن تُحدِّد لهم مذهبًا.

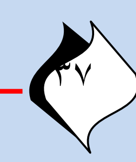
تتصل المتصلة أو يتصل المتصل بالشيخ المعمَّم : شيخنا! ما تقول في مسألة كذا؟

يقول لها: هذه المسألة فيها خلاف، وفيها أربعة أقوال:

القول الأول: قول أبي حنيفة، يقول بالجواز.

وأما القول الثاني: فقول ابن حزم ويقول بالمنع.

وأما القول الثالث: فقول الشافعية، يقول بتفصيل ما.



وأما القول الرابع: ثم يقول: ولكي أن تأخذي ما تشائي، هل هذا هو الفقه؟ ليس هذا هو الفقه.

ما من قول من هذه الأقوال إلا وهو راجح أو مرجوح، إلا وهو يُعضِّده الدليل أو يفتقر إلى الدليل.

قد يكون بعض هذه الأقوال يعتمد على حديث ضعيف أو منسوخ أو قياس ضعيف، وهذا الشيخ يعلم ذلك ، فلماذا لا يُرشِد العوام إلى القول الصحيح ؟

يقولون: لا بد أن لا نُحجِّر على الناس!!

هذا ليس من التحجير على الناس، بل هذا يُسبِّب الفُرقة بين الناس وضياع الدين.

ولتعلموا: كان لفترة قريبة بسبب الاختلاف في الدين وعدم الرجوع إلى قول المعصوم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ= كان في المسجد الحرام أربعة أئمة، كلٌ يصلي في قِبلة غير الثاني:

إمام للشافعية، وإمام للحنفية، وإمام للحنابلة،وإمام للمالكية، يصلون الظهر أربع مرات. الحنفي يصلي خلف الحنفي! والشافعي يصلي خلف الشافعي!والحنبلي يصلي خلف الحنبلي! وهكذا. هذه فُرقة في الدين، حتى أنعم الله تبارك وتعالى ، فصار الناس يصلون خلف إمام واحد.

فالآن الذي يقول للناس ينبغي أن نجتمع على ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا صار زنديقًا، وصار مجنونًا عند هؤلاء أو لا يفقه شيئاً من الدين. يقولون: يريدون أن يُحجِّروا حُرية الناس وأن يكبتوا ما عند الناس من العقل والفَهم والفِكر وغير ذلك.

وأما الذي يدعو إلى الافتراق وإلى أن يأخذ كل من شاء ما شاء من الدين فهذا الذي عنده العلم والفقه.

ولذلك تجد الناس مختلفين في هذا الأمر إلا مَن أخذ بمن كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وهم أهل السُنَّة والجماعة.

والسبب في ذلك، أي سبب عدم فُرقتهم:

ما بيَّنه غير واحد من أهل العلم، ومن هؤلاء أبو المظفَّر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه قال في بيان صحة مذهب أهل الحديث، سُموا أهل الحديث لأنهم ينصرون حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكتاب الله تبارك وتعالى.

قال أبو المظفر: "ومما يدل على أن أهل الحديث هم على الحق، وهم الطائفة المنصورة والفِرقة الناجية: أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم مع اختلاف بلدانهم وزمنهم وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطرًا من الأقطار، وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمط واحد، يجرون فيه على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون فيها: قولهم في ذلك واحد، وفِعلهم واحد، لا ترى بينهم اختلافًا ولا تفرقًا في شيء ما وإن قلَّ؛ بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء من قلب واحد وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا؟

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]."

ولذلك نجد أهل السُنَّة لا يتشعَّبون ولا يتفرَّقون، هم فِرقة واحدة، وإن اختلفت مسمياتهم وأسماؤهم على مر العصور.

أهل السُنَّة في زمان من الأزمنة يُسمون بأهل السُنَّة والجماعة وذلك وقت خروج الخوارج فكانوا هم أهل الجماعة الداعين إليها ، في زمان آخر كانوا يُسمون بأهل الحديث والأثر وذلك وقت انتشار الرأي رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

لشيهة أو قياس فاسد ، في زمان ثالث يسمون بالفِرقة الناجية، بالطائفة المنصورة، وفي هـذا الزمـان يُسـمون بالسـلفيين لـدعوتهم النـاس للرجـوع إلى مـا كـان عليـه سـلفنا الصالحين، فمنهجهم واحد وإن اختلفت أسماؤهم.

فالطائفة المنصورة هم السلفيون، ولا أعني بالسلفيين محمداً أو محمودً أو علياًأو غير هؤلاء، وإنما أعني المنهج. المنهج الصحيح المعصوم هو منهج السلفيين، وهو المنهج الذي يقوم على ما كان عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصحبه.

وخير دليل على ذلك: أنك لو نظرت في الفِرق كفِرقة الخوارج لمَّا بدأت بدأت واحدة، فهؤلاء الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكفَّروا الصحابة كانوا فِرقة واحدة، ثم هم الآن يزيدون على عشرين فِرقة، كل منهم يُكفِّر الآخَر.

هذا في هؤلاء الخوارج الذين يُكفِّرون المسلمين بغير مكفر موجب. لو نظرت إلى فِرقة الشيعة الرافضة بدءوا مع علي وادَّعوا حُبَّ علي وآل البيت رضي الله عنهم أجمعين، وكانوا فِرقة واحدة، ثم صاروا الآن إلى فِرق شتَّى:الجعفرية، والإسماعيلية، والزيدية، والإمامية الرافضة.

لو نظرت كذلك إلى المعتزلة: بدؤوا فِرقة واحدة، أتباع واصل بن عطاء، ثم هم الآن فِرق شتَّى: البغدادية، والبصرية، والهاشمية، والجُبَّائية، والقدرية، والحداثيون العقلانيون في هذا الزمان مع أنهم بدءوا فِرقة واحدة.

ولو نظرت إلى أهل الحديث والأثر لوجدت أنهم لم يتفرَّقوا، وإنما هو منهج واحد على ما كان عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصحبه.

ولذلك ينبغي علينا أن نعتصم بكتاب الله وبسنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لأن فيه النجاة. قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسُنتي»**.

وهل هناك ضلال واقعٌ بعد النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟ نعم، ضلال لمن خالف فوقع في الافتراق. قال صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الحديث الذي بنى عليه الإمام هذه الأصول وهو حديث العِرباض بن سارية رضي الله عنه: وعظنا رسول الله صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله : كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا، فأوصاهم النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ماذا قال لهم؟

قال: **«أوصيكم بتقوى الله»** هذا هو إخلاص الدين لله: فِعل المأمور وترك المحظور، **«والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبد حبشي، وإياكم ومحدثات الأمور»** الأمور المحدثة التي تخالف الكتاب والسُنة وفَهم سلف الأمة،فهذا الأصل الثاني والثالث **«فإنه مَن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا»**هذا يدل على انتشار الضلال بين الناس والفُرقة والفتن نسأل الله السلامة والعافية.

مَن الناجي ومَن المعصوم؟ قال: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ وتمسَّكوا بها»** وهذا فيه باقي الأصول الستة.

فالذي يتمسك بالكتاب والسُنة وبسنة الخلفاء الراشدين المهديين لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، لأن الكتاب والسنة معصومان، وسنة الخلفاء كذلك لكون أصحابها زكاهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: راشدين مهديين..

أسأل الله ﷻ أن يمسِّكنا بالكتاب والسُنة وبما كان عليه سلف الأمة حتى نلقاه إنه ولي ذلك والقادر عليه.



الأصل الثالث

(المتن)

الأصل الثالث: أن من تمام الاجتماع: السمع والطاعة لمن تأمَّر علينا، ولو كان عبدًا حبشيًا، فبيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا بيانًا شائعًا بائعًا بكل وجه من أنواع البيان شرعًا وقدرًا؛ ثم صار هذا الأصل لا يُعرف عند أكثر مَن يدَّعي العلم، فكيف العمل به؟

(الشرح)

هذا هو الأصل الثالث من هذه الأصول المباركة، ومداره على السمع والطاعة لولاة الأمور في غير معصية الله، فمَن ولَّاه الله أمر المسلمين وجب على المسلمين أن يسمعوا له ويطيعوا في المعروف، فإن أمرهم بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

وهذا الأصل أصل متفق عليه لا خلاف فيه، ولذلك تجد كل كُتب الاعتقاد منذ بدء تصنيفها إلى الآن لا تترك هذا الأصل، ولكن تذكره، لماذا؟

لأن هذا الأصل خالف فيه جميع الفِرق عدا أهل السُنَّة والجماعة. السمع والطاعة لولاة الأمور في غير معصية الله هذا أصل خالف جميع الفِرق، كالمعتزلة والأشاعرة في هذا الزمان والخوارج والمرجئة، كلهم خالفوا هذا الأصل بلا استثناء.

وهذه البدعة أعني بدعة الخروج على ولاة الأمر هي أول بدعة حدثت في الإسلام، وذلك أن ذا الخويصرة التميمي لمَّا جاء النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُقسِّم الغنائم غنائم حنين، قال: يا محمد اعدل، فقال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خبت وخسرت إن لم أعدل» فأراد بعض الصحابة أن يقتله، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دعه، فإنه يخرج من ضئضئ هذا» أي من أصل هذا «أقوام تُحقِّرون صلاتكم إلى صلاتهم، وصيامكم إلى صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمية».

فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أقوام يأتون بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجتهدون جدًا في العبادة ولكنَّ سيفَهم مُسلَطٌ على رقاب المسلمين، لا على أعداء الدين من اليهود والنصارى والمشركين، وإنما سيفهم دائمًا موضوع على رقاب المسلمين وهم الخوارج.

فكانت هذه البدعة هي أول البدع التي ظهرت. خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكفَّروا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن يوم أن ظهرت هذه البدعة في الأمة وهي فيها إلى الآن.

بل إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن الخوارج كلما ظهر منهم قرن قُطِع حتى يخرج آخرهم في عِراض الدجَّال، أي أن آخر الخوارج يكون تابعًا للمسيح الدجال مع أنهم كانوا يجتهدون في العبادة جدًا.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابة: **« أقوام تُحقِّرون صلاتكم إلى صلاتهم، وصيامكم إلى صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمية»** ومع ذلك كانوا سُفهاء الأحلام، حُدثاء الأسنان كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كانوا وما زالوا قليلي الفَهم؛ يُنزلون آيات المشركين في المسلمين فيكون التكفير ثم التقتيل والتفجير بعد ذلك، ولا يرجعون إلى تفاسير السلف. يردون سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأهوائهم، وكل شرٍ إنما يأتي منهم؛ فما يصيب البُلدان من شرور إنما هو من أثر فِعالهم.

ولذلك تتابع العلماء على ذِكر هذا الأصل في مصنفات الاعتقاد وعلى التحذير منهم.

فذكره المصنف هاهنا كأصل ثالث، وهذه الأصول الستة كما قلنا مبناها على حديث العرباض بن سارية: وعظنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودِّعٍ فأوصنا، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبدًا**

حبشيًا، فإنه مَن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ».

فقال هاهنا: إن من تمام الاجتماع: السمع والطاعة لمن تأمّر علينا، ولو كان عبدًا حبشيًا:

الناس لا بد لهم من إمام،لا بد لهم من قائد، لا بد لهم من أمير براً كان أو فاجراً، العرب لا يصلحون إلا بإمام وأمير وقائد.

لاَ يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لاَ سَراةَ لَهُمْ
ولا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

ولذلك كان أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا مشغولين بإيجاد الخليفة والإمام قبل دفن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قبل أن يدفنوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ليولوا خليفةً للمسلمين.

وهذا يدل على ماذا؟ على أنه لا بد من وجود إمام للمسلمين برًا كان أو فاجرًا من أجل أن تجتمع كلمتهم، وهذا هو معنى الجماعة.

قلنا قبل ذلك: الجماعة جماعتان:

جماعة قائمة على منهج السلف، وهي جماعة المنهج.

وجماعة أبدان: وهي التي تجتمع على ولي الأمر وتطيعه في غير معصية الله تعالى.

فالصحابة لمَّا تُوفِّي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يدفنوه حتى بايعوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه، لماذا؟

لأنهم كانوا يخشون من الاختلاف ومن الفتنة، فلا يصلح الناس بلا إمام ولو لليلة واحدة.

<u>ولذلك كانت عبارة السلف: سلطان غشوم خير من فتنة تدوم.</u>

والناس إذا كانوا بلا إمام وقع فيهم الهرج والمرج والقتل وغير ذلك من الأمور التي رأيناها.

دليل هذا الأصل:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

هذه الآية في حق الراعي، والآية التي قبلها في حق الرعية، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

فهاتان آيتان: الآية الأولى في حق الرعية، وما يجب على الراعي تجاه الرعية هو أن يؤدِّي الأمانات إلى أهلها، وأن يحكم بين الناس بالعدل.

والآية الثانية في حق الراعي، فقال الله فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٥٩] وهذه طاعة مطلقة ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] وهذه كذلك طاعة مطلقة، لأن الله لا يأمر بمعصية ولا يأمر بالفحشاء، وكذلك نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فعطف طاعة أولي الأمر -الأمراء والعلماء- على طاعة الله وعلى طاعة رسوله لماذا؟

لأن طاعة أولي الأمر ليست طاعة مستقلة، وإنما هي طاعة في المعروف، إذا أمر بمعروف فسمعٌ وطاعة، أما إذا أمروا بغير معروف بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة، ولا ننزع يدًا من طاعة، ولكن نصبر كما بيّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ما معنى قوله: منكم؟ أي من المسلمين، فولي الأمر لا بد أن يكون مسلمًا، لا يصلح أن يتولَّى على المسلمين كافر، وإنما الذي يتولَّى عليهم لا بد أن يكون مسلمًا، هذا شرط.

حتى ولو لم يكن قائمًا بكل ما جاء به النبي الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو ولي أمر المسلمين كذلك.

منكم: أي من المسلمين، برًا كان أو فاجرًا. فالذي يُشترط فيه أن يكون مسلمًا.

كيف تكون الولاية؟

هناك طُرقٌ أربعة للولاية:

الطريق الأول: وهو النص: أن يأتي النص من الشرع على شخص بعينه، كأن ينص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على شخص بعينه، كما هو الحال في أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند جماعة من أهل العلم.

فإن بعض أهل العلم قالوا: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيَّن وحدَّد أبا بكر ليكون خليفة للمسلمين من بعده، قدَّمه في الصلاة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضه إماماً للناس في أمر الدين، فهو إمامهم في أمر الدنيا.

لمَّا جاءته امرأة تسأله عن أمر ما سألته بعد ذلك: ماذا أصنع إذا جئت فلم أجدك بعد ذلك؟ قال لها: **«ائت أبا بكر»**، قال: **«اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»**.

فبعض العلماء أخذ من هذه النصوص أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشار ونصَّ على خلافة الصديق.

هذا هو الطريق الأول، وهذا ليس موجودًا، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات.

الطريق الثاني: اتفاق أهل الحَل والعقد على اختيار رجل بعينه، يبايعونه ثم بعد ذلك يبايعه الناس.

مَن أهل الحَل والعقد؟ يختلفون باختلاف الزمان:

فالأصل في أهل الحَل والعقد أن يكونوا من العلماء؛ لأنهم أعلم الناس وهم أدرى الناس بأمور الدين وسياسة الدنيا بالدين، ولكن قد يكون أهل الحَل والعقد هم أصحاب السلطة كالجيش والشرطة فهم أهل الشوكة.

ولذلك بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه منهاج السُنَّة النبوية أن أهل الحل والعقد هم أهل الشوكة والقوة.

كما حدث مع عثمان بن عفان ﷺ، فإن عمر ﷺ لـمَّا توفي جعل الشورى في ستة مات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو راضٍ عنهم، وهم الستة الباقون من العشرة المبشرين بالجنة، فتشاوروا واجتمعوا واختاروا من بينهم عثمان بن عفان ليكون خليفة للمسلمين، بايعوه أولاً، ثم جاء باقي الصحابة فبايعوا عثمان خليفة للمسلمين، رضي الله عنهم جميعًا.

الطريقة الثالثة: أن يعهد الأول للثاني، أي أن الخليفة يعهد لرجل من المسلمين، كما فعل أبو بكر ﷺ مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فإنه قبل أن يموت استخلف على المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

الطريقة الرابعة: وهي التغلب والقهر، فمَّن تغلَّب على المسلمين بقوته وسلطانه وقهرهم وصار إمامًا لهم فله السمع والطاعة في غير معصية الله طالما أنه مسلم.

ولذلك جاء في الحديث الذي معنا حديث العرباض بن سارية: **«فعليكم بالسمع والطاعة وإن كان عبدًا حبشيًا مُجدَّع الأطراف»**.

ونحن نعلم أن من شروط الإمامة: أن يكون الإمام حُرًا، وأن يكون من قريش وكل ذلك حال الاختيار، ومع ذلك قال لك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فأسمع وأطع وإن كان عبدًا»** وهذا خلاف شرط ماذا؟ خلاف شرط الحرية **«وإن كان عبدًا حبشيًا»** وهذا

خلاف شرط القرشية، **«مُجدَّع الأطراف»** من شرط الإمامة أن يكون الإمام سليم الأعضاء ليقوم بها على خير وجه، وهذا مجدَّع الأطراف.

فدل ذلك على أن الإمامة تنعقد لمن قهر وغلب وتولَّى على المسلمين، وهذا مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة، وكل ذلك كما قلنا في غير معصية الله.

كَمِثل مَن؟ كتغلب عبد الملك بن مروان على عبد الله بن الزبير، فإن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه كان الأمير المطاع، ولكنْ تغلَّب عليه عبد الملك بن مروان، فصارت له الإمامة والخلافة بعد عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

وكمثل تغلبت الدولة العباسية على الدولة الأموية، فالدولة العباسية أخذت السُلطة من الدولة الأموية قهرًا وبالسيف، ومع ذلك كل العلماء الذين كانوا في عهد الدولة العباسية أذعنوا لهم بالطاعة في غير معصية الله، كالبخاري وأحمد وكيحيى بن معين، وكل مَن كان من علماء المسلمين في هذا الوقت لا يُعلَم لهم مخالف.

إذًا: بكم طريقة تنعقد الإمامة؟ تنعقد بطرق أربعة:

بالنص، والاستخلاف، وبأهل الحَل والعقد، وكذلك بالتغلب.

فهنا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فشرط الإمام أن يكون مسلمًا.

إذًا طالما أنه مسلم لا يجوز الخروج عليه ، ولا يجوز إثارة الفتن ضده.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إلا أن تروا كُفرًا بواحًا عندكم فيه من الله بُرهان»** أي إلا أن يكفر هذا الرجل.

فإذا حكم علماء المسلين المعتبرين بأنه كافر كفراً لا خلاف فيه وأُقيمت عليه الحُجة وثبت كُفره بالدليل القاطع، لا نسارع بالخروج عليه، ولكن ننظر:

هل لو خرجنا عليه وأردنا إزالته يترتب على ذلك مفسدة أعلى وأعظم؟

فإن كان الأمر كذلك: حرم الخروج عليه للمفسدة الأعلى التي ستترتب على ذلك.

وأضرب لك مثالًا بالذي حدث في بلاد الشام في سوريا:

فبشَّار الأسد ومن قبله والده حكم بعض العلماء عليه بالكُفر، لماذا؟ قالوا لأنه صاحب عقيدة نصيرية، يؤلِّه عليًا ﷺ فهو كافر ومع ذلك ما حكم العلماء وما أوجبوا الخروج عليه، بل أمروا الناس بالصبر.

الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا سُئل عن الخروج على حافظ الأسد الذي كان قبل بشار منع ذلك، لماذا؟

هو معه الدبابات و الرشاشات والمدافع، وأنت تخرج بسكينة المطبخ، تخرج بما تكنس به القمامة!! تقول: سلمية سلمية!!

إذًا أنت تُعرِّض نفسك والمسلمين لفتنة عظيمة، ففي مثل هذه الحالة مع كُفره وعدم ولايته يجب على المسلمين أن يصبروا ويحرم عليهم أن يخرجوا، لماذا؟

لأن دفع المفسدة الأعلى بالمفسدة الأدنى أمر واجب. إذا كانت هناك مفسدة أعلى ومفسدة أدنى ندفع المفسدة الأعلى بالمفسدة الأدنى كما قال العثيمين:

وقدم الأعلى لدى التزاحم

في صالحٍ والعكس في المظالم

أضرب لك مثالًا آخر: النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا فتح مكة كانت قريش قد بنت البيت على غير قواعد إبراهيم، قصرت بهم النفقة، فبنوا البيت على غير قواعد إبراهيم، فأراد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يهدم البيت وأن يبنيه على قواعد إبراهيم، ولكنه لم يفعل، لماذا؟

قال لعائشة رضي الله عنها: **«لولا أن قومكِ حديثُ عهد بكفر لنقضت الكعبة ثم بنيتها على قواعد إبراهيم»**.

إذًا خشي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إن نقض الكعبة قالت قريش: هذا الذي يزعم أنه يُعظِّم البيت ويُعظِّم دين إبراهيم يهدم الكعبة التي بناها!! فترتد قريش إلى الكفر مرة ثانية، فترك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ البيت على غير قواعد إبراهيم، تركه ناقصًا.

ولذلك هذا الحِجر حِجر إسماعيل من البيت، أراد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يُدخِله في الكعبة ولكنه ما نقض الكعبة، لماذا؟

لأنه دفع المفسدة الأعلى بمفسدة أدنى.

كذلك لو كان الحاكم كافرًا وحكم العلماء بكفره كما ضربنا في المثال، لا يجوز لك أن تقول: هو كافر، لا بد أن نخرج عليه!!

أين شرط القدرة؟ والقدرة مناط التكليف، إذا لم تكن قادرًا حرم عليك أن تخرج؛ لأنك ستعرِّض الأمة الإسلامية للفتن، ونحن نرى الآن الشباب السوريين والنساء السوريات على أبواب المساجد وفي الطرقات في بلدتنا، وقد كانوا في بلدهم أعزة مكرمين، كانوا يعيشون عيشة هي أفضل من حال كثيرٍ منا، ثم ما الذي حدث بعد خروجهم؟

هل زال المنكر وزال الكفُر؟ هل زال بشار؟ بقي كما هو. إذًا لا بد من شرط القُدرة.

إذًا قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«إلا أن تروا كُفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان»**، هذا لا بد أن يحكم فيه العلماء، لا أن يحكم فيه الصبيان والخوارج.

فالخوارج يقولون: هو كافر اخرجوا، امرأتي طالق إن لم يكن كافرًا!! عبثٌ.

مَن الذي حكم بكفره؟ مَن العالم المعتبر الذي حكم بكفره؟ هذه الأمور لا بد أن يقضي فيها أهل العلم وأن ينظروا فيها المرة بعد المرة لخطورتها، لا بد فيها من وجود شروط وانتفاء موانع، ليس لأي أحد أن يحكم على أحد بالكفر، فقال صلى الله عليه وسلم: **«إلا أن تروا كُفرًا بواحًا»**.

إذًا إذا كان الحاكم فاسقًا جائرًا ظالمًا يُنصَح ويُزجَر، وستأتي طريقة النصيحة، ولا يُخرَج عليه.

الخروج لا يكون إلا في حالة واحدة: إذا كان كافرًا كُفرًا بيِّنًا واضحًا كوضوح الشمس لا يختلف عليه اثنان، وحكم العلماء بذلك، هذا في الآية.

في الحديث قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أوصيكم بتقوى الله»** فهذا الأصل الأول، **«والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبدٌ، فإنه مَن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرً»** دل ذلك على أن الاختلاف العقدي لا يكون في الصحابة، وإنما يرى الصحابة ذلك، لا يكون الاختلاف فيهم وإنما في غيرهم.

قال: **«فعليكم بسنتي، وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»**.

قال: ثم صار هذا الأصل لا يُعرف عند أكثر مَن يدَّعي العلم، فكيف العمل به؟

ثم صار هذا الأصل السمع والطاعة لولاة أمر المسلمين في غير معصية الله صار لا يُعرف عند أكثر مَن يدَّعي العلم.

كثير ممن يدَّعي العلم ينكر هذا الأصل، ويرد الأحاديث الواردة في هذا الأصل. الصحابة ومَن بعدهم كانوا يوصون أولادهم ومَن لهم ولاية عليهم كانوا يوصونهم بهذا الأصل، ويؤكِّدون عليه:

ففي صحيح مسلم من حديث علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه: قال: سأل يزيد بن سلمة الجُعفي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يا رسول الله أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، لو تولَّى علينا أمراء يسألونا حقهم:

أين فاتورة الكهرباء؟ أين فاتورة الماء؟ أين المال الذي ينبغي أن تدفعوه في كذا وكذا؟ ويمنعونا حقَّنا، أي لا يعطونا حقَّنا فَمَا تَأْمُرُنَا؟ ماذا نصنع؟ نخرج عليهم؟ نتظاهر ضدهم؟ نؤلِّب العوام ضدهم؟

قَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ».

«اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا»، الله تبارك وتعالى حكم عدل ولا يُظلَم عنده أحد، لا يظنن إنسان ظُلِم في هذه الحياة الدنيا من حاكم أو غيره أن حقه سيضيع ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ولكن ينبغي أن يكون لك موقف شرعي، **ما الموقف الشرعي؟** الصبر كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» والصبر ليس سلبيَّة، لماذا؟

لأنه أمر نبوي ، ولأنك تدفع بالمفسدة الأدنى مفسدة أعلى.ما هي المفسدة الأدنى؟ أنك ظُلِمت، أنك ضُرِبت، أنه أُخِذ مالك، أنك سُجِنت، تدفع بهذه المفسدة المفسدة الأعلى وهي ضياع بُلدان المسلمين، تصبر حتى يستريح بَر أو يستراح من فاجر، فإن الناس إذا خرجوا على ولي الأمر ضاعت بلاد المسلمين.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسمعوا وأطيعوا إنما عليه ما حُمِّلوا» فهذا الصحابي سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حاكم عادل أم عن حاكم ظالم؟ حاكم ظالم، فأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسمع والطاعة.

فدل ذلك على أن الشريعة لم ترتِّب السمع والطاعة على عدل الأئمة، وإنما رتَّبته على إسلامهم، فطالما أنه مسلم لم يقطع العلماء بكفره ولم تقم عليه الحُجة فلا بد أن نسمع له ونطيع، وأن نُبغِض ما يصنعه من المعصية.

لا نحب المعصية، لا نحبه ولا نحب فِعله الذي وقع فيه في المعصية، ولكن لا ننزع يدًا من طاعة لماذا؟

لأن الشرع علَّق السمع والطاعة على كونه مسلمًا لا على كونه عدلًا.

لو أن الشرع علَّق السمع والطاعة على العدل لَـمَا بقيت بلاد المسلمين في أمان وأمنٍ بعد الخلفاء الراشدين؛ فإن العدل التام لم يكن إلا في الخلفاء الراشدين، وأما فيمن بعدهم فلا بد أن يقع بعض الجور فمستقلٌّ ومستكثر.

فلو كان الشرع مرتِّبًا السمع والطاعة على عدل الأئمة لَـمَا بقيت بلادٌ للمسلمين في أمان.

وكذلك جاء في مصنف بن أبي شيبة عن محمد بن المنكدر قال: لـمَّا بويع ليزيد بن معاوية أخذ معاوية ﷺ البيعة ليزيد، وكان بعض الصحابة يكره ذلك، وذُكر ذلك لابن عمر رضي الله عنهما.

قالوا لابن عمر: قد أخذ معاوية البيعة ليزيد، فماذا أنت صانع؟

فماذا قال عبد الله بن عمر خبير الفتن؟ قال: " إن كان خيرًا رضينا به، وإن كان شرًا صبرنا. "

ما قال: خرجنا، قال: إن كان خيرًا رضينا به، وإن كان شرًا صبرنا، امتثالًا لقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«اصبروا»**.

قال: ثم صار هذا الأصل لا يُعرف عند كثير ممن يدَّعي العلم، فيجهلون مسألة السمع والطاعة، وما لها من فضل وما لها من أهمية.

إذا كان هذا فيمن يدَّعي العلم، فكيف بالعوام الجُهَّال الذين هم أتباع لهؤلاء؟

صار الشجاع عند هؤلاء كما يقول الشيخ الفوزان: صار الشجاع الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر عندهم الذي لا تأخذه في الله لومة لائم عندهم هو الذي يخرج على إمام المسلمين ويخلع يد الطاعة، وينادي بالثورة على الحكام المسلمين بمجرد حصول الخطأ منهم أو بمجرد حصول المعصية التي لا تصل إلى حد الكُفر، وصار حديث المجالس والندوات والمحاضرات في تتبع عثرات الولاة وتفخيمها

والنفخ فيها، حتى يؤول الأمر إلى تفرق الكلمة، وتنفير الرعية من طاعة ولي الأمر، حتى يختل الأمن وتُسفك الدماء.

ولذلك أنت تجد بعض القنوات الآن لا همَّ لها إلا الكلام على ولاة أمر المسلمين: قناة الجزيرة، قناة مكملين, قناة الشرق، كل القنوات الإخوانية هذه التي تبث سموم جماعة خوَّان المسلمين لا همَّ لها إلا أن تتكلم عن عثرات ولاة أمر المسلمين.

فهذا يؤدِّي إلى نزع اليد من السمع والطاعة، وإلى فساد حال الناس، وبالتالي هذا يؤدي إلى الثورة على ولاة الأمر وإلى سفك الدماء، وإلى حلول الفتن في بلاد المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ-واسمع هذا الكلام النفيس- قال: "ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولَّد منه ما هو أكبر منه."

رأى الناس يشربون الخمور فخرج من أجل ذلك فسُفِكت الدماء، ونُهِبت الأموال، ورُوِّع الآمنون، فحدث ضرر أكبر.

وقال كذلك: "وَلَعَلَّهُ لَا يَكَادُ يَعْرِفُ طَائِفَةً خَرَجَتْ عَلَى ذِي سُلْطَانٍ، إلَّا وَكَانَ فِي خُرُوجِهَا مِنَ الْفَسَادِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي أَزَالَتْهُ."

كان في الخروج مفسدة أعظم من المفسدة التي أرادت أن تُزيلها.

كيف تكون النصيحة لولاة أمر المسلمين؟

إذا وقع السلطان في معصية وفي أمر منكر ماذا نصنع؟ هل نُصفِّق له؟ هل نقول له استمر على ما أنت عليه؟ أم واجب علينا أن ننصحه؟ واجب علينا أن ننصحه امتثالًا لقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«الدين النصيحة»** قال الصحابة: لِمَن يا رسول الله؟ فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم»**.

فالنصيحة واجبة لولاة أمر المسلمين، ولكن كيف تكون النصيحة؟ على المنابر؟ في خُطب الجمع؟ هل يسمعني ولي الأمر إذا فعلتُ ذلك؟ إذا تكلمت عن العيوب والمساوئ هاهنا لا يسمعني، وإنما الذي سيحدث أنني أهيِّج الناس وأُأَلِّبهم عليه دون جدوى، فتحدث الفتن.

هل يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القنوات الفضائية؟ هل يكون في الطُرقات؟ في المظاهرات والثورات وغير ذلك؟ لا.

ولكن لنا منهج قرآني نبوي نسير عليه، ما هذا المنهج القرآني؟

جاء المنهج القرآني مع أعتى العُتاة وأشد الجبابرة الظلمة جاء فيه بيان طريقة النُصح: فرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] قال الله ﷻ لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣] قال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ١٦] ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣] قال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ١٦] ليس في الطريق ولكن عنده.

إذا ذهبت إليه وأمرته ونهيته ولم يستجب وقتلك فأنت خير شهيد، ولكن لا بد أن يكون هذا عنده، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**».

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفصح الخلق قال: «**عند**» وعند هذه ظرفية، فلا بد أن يكون ذلك أمامه، أو ما يقوم مقام ذلك كأن تراسله.

وجاء في حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«مَن أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُبدي له علانية»** ليس على رؤوس الأشهاد وإلا كانت فضيحة تقابل بالرفض والعناد **«ولكن ليأخذ بيده ولينصحه، فإن قَبِلَ منه فبها ونعمت، وإلا فقد أدَّى الذي عليه»**.

فإن مُنِعت عن بيان ذلك: فقد سقط الواجب عنك، حالوا بينك وبين إيصال الشكوى، وبين بيان المنكر: سقط الواجب عنك، لست مكلفًا بذلك.

صار مَن هو أعلى منك، ومن يستطيع أن يصل إليه هو المكلف بهذا الأمر.

فقال: صار هذا الأصل لا يُعرف عند أكثر مَن يدَّعي العلم فكيف العمل به؟

فهذا يدل على أنه لا يجوز الخروج على ولي الأمر طالما أنه مسلم، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في أكثر من حديث بيّن ما سيكون في الأمة بعده من ظُلم الأئمة ومن جورهم كونا وقدراً، ومع ذلك أمرنا بالسمع والطاعة.

فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«مَن رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد من الناس يخرج من السلطان شِبرًا فمات عليه، إلا مات ميتة جاهلية»**.

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: **«مَن خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية، ومَن قاتل تحت راية عُمِّيَة يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية فقُتِل فقِتلة جاهلية»**.

يعني كثير ممن خرج في الثورات خرج من أجل ماذا؟ من أجل بطنه، خرج من أجل جماعته، من أجل حزبه، من أجل شعارات كاذبة يروِّجها الغرب. هذا ما خرج لله، وخلع اليد من الطاعة.

فالذي يموت في مثل ذلك مات ميتة جاهلية، كما أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وقال: **«ليس من أمتي من خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد بعهده، فليس مني ولست منه»**.

وجاء عن الحسن البصري أنه قال لمَّا جاءه أناس يستفتونه في فتنة ابن الأشعث:

عبد الرحمن بن الأشعث هذا أراد أن يخرج على الحجَّاج بن يوسف الثقفي، ونحن نعلم حال الحجَّاج بن يوسف.

كان ظلومًا غشومًا، سفَّاكًا للدماء، حتى قال عمر بن عبد العزيز: لو أن الأمة جاءت بذنوبها في كِفَّة، وجئنا بني أمية بذنوب الحجَّاج في كِفة لرجحت كِفة ذنوب الحجَّاج بذنوب الأمة.

وهذا يدل على ظلم الرجل وعلى جوره، فخرج عليه عبد الرحمن بن الأشعث، فذهب الناس يستفتون الحسن البصري في الخروج مع ابن الأشعث؟

فقال الحسن رحمه الله: أرى ألا تقاتلوه. لا تخرجوا على الحجَّاج؛ فإنها إن تكن عقوبة من الله–لأن السلطان قد يكون عقوبة للناس. الناس إذا تركوا الشرع وفجروا وابتعدوا عن منهج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلَّط الله عليهم مَن يسومهم سوء العذاب، وقد يكون ابتلاءً–

فقال: أرى ألا تقاتلوه، فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادِّي عقوبة الله بأسيافكم.

وشرح ذلك أنَّ عقوبة الله لا ترد بالسيف، فلو كان هناك إنسان فاجر ظالم ابتلاه الله تبارك وتعالى بمرض ما، لا يصلي ويشرب الخمر ويزني ويفعل كل الموبقات، ابتلاه الله تبارك وتعالى بمرض ما أو بفقد ولد ليرعوي وينزجر، ما الذي يجب عليه أن يصنعه؟

أن يتوب وأن يعود إلى الله ليرفع عنه البلاء، كيف ترد هذه العقوبة؟

قال: إنما تُرد بالتوبة. أن يرجع الناس وأن يتوبوا إلى الله.

قال: فخرجوا من عنده يقولون: نطيع هذا العِلج؟ نطيع هذا؟ فوالله ما خرج واحد منهم على الحجَّاج بن يوسف إلا قُتل أو ندم بعد أن نجا.

فالذي نجا منهم من القتل ندم وعاد، وتاب إلى الله تبارك وتعالى، ومنهم مَن قُتل فما حصَّل دنيا ولا آخرة، لماذا؟ لأنه خالف نهج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

أخذوا الحسن البصري عنوة ليكون معهم في خروجهم ، أراد الحسن البصري أن يهرب فماذا صنع ؟ ألقى بنفسه في النهر حتى لا يقتدي الناس به، ولم يفعل كما فعل مسلم بن يسار رحمه الله وعفا عنه.

مسلم بن يسار هذا كان أعلى مرتبة من الحسن البصري، ولكنه خرج مع الناس، ولم يقاتل بسيف، فتلوَّث بها تلوَّث به الناس.

لماذا؟ لأن الناس لمَّا رأوه خرجوا من أجله، خرج رجل فاضل فخرجوا في أثره.

أما الحسن البصري لمَّا خشي أن يقتدي الناس به ماذا صنع؟ ألقى نفسه في النهر.

بل بعضهم كان إذا هاجت الفتن في الخروج وسفك الدماء يُغلِق باب بيته بالطين اللبن، ولا يترك إلا طاقة أو كوَّة ليأخذ منها الطعام يصلي في بيته، لا يأخذ الطعام إلا من هذه الكوة خشية الفتنة.

وكذلك لمَّا جاؤوا لأحمد بن حنبل وأرادوا منه الخروج على ولاة أمر الدولة العباسية، لمَّا فعلوا ما فعلوا في أهل السُنَّة بسبب فتنة خلق القرآن منعهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه وقال: هذا خلاف الآثار.

عندنا الآن بعض الشُبه التي يرددها هؤلاء.

▪**الشبهة الأولى:** يقولون: قد خرج الحسين بن علي، وخرج عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم؟

نقول: أما عبد الله بن الزبير رضي الله عنه فقد خُرِج عليه، عبد الله بن الزبير هو الذي كان أميرًا، وخرج عليه عبد الملك بن مروان، فلم يخرج صحابي قط، وقد كان الزمان زمان فتنة وفُرقة، وفي مثل هذه الأزمان تُعتزل الفتنة، واعتبر بحال ابن عمر رضي الله عنهما في ذلك الزمان.

وأما الحسين بن علي فقد غُرِّر به، ما كان خارجًا على ولي أمر، وإنما ذهب لأقوام دعوه، فأحسن الظن بهم، فلما علم ما وقع وعلم مرادهم أراد أن يذهب ليزيد ليبايعه أو أن يرجع إلى مكة أو أن يلحق بثغر من ثغور المسلمين كما بيَّن ابن كثير في البداية والنهاية، ولكنهم لم يمكِّنوه من ذلك، فقُتل شهيدًا مظلومًا رضي الله عنه.

فالحسين لم يخرج.

حتى لو فرضنا أنه خرج، فنقول: هذا صحابي فعل فعلًا خالف حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يؤخذ بفعل الصحابي ولا بقوله.

فِعل الصحابي وقوله الذي خالفه غيره من الصحابة ليس حُجة فكيف إذا خالف قول النبي وفِعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

▪ **الشبهة الثانية:** يقولون: هؤلاء الحكَّام فجرة فسقة، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلم عن الحكام العدول؟

نقول: هل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول عن الحكام العدول:

يهدون بغير هديي؟

يستنون بغير سنتي؟

قلوب شياطين في جثامين إنس؟

يميتون الصلاة؟

يستأثرون بالأموال والسلطان؟

يمنعونكم حقكم ويأخذون حقهم؟ هل هؤلاء عدول؟!!

كلَّمنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحكام الظلمة، وهؤلاء هم الذين أمرنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نصبر عليهم.

▪ **الشبهة الثالثة:** يقولون: هؤلاء لا يُحكِّمون شرع الله، ولا يحكمون بما أنزل الله؟

نقول: هذه شُبهة قديمة حديثة، لأن الخوارج لَمَّا خرجوا على علي بن أبي طالب ماذا قالوا؟ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧، فماذا قال علي رضي الله عنه؟

قال: كلمة حق أُريد بها باطل.

هؤلاء لا يريدون تحكيم الشريعة، وإنما يريدون الفتنة، ولذلك لَمَّا تولَّى الرئيس الإخواني ماذا صنع؟

تسألة المذيعة في البرنامج: هل ستحكِّمون الشريعة؟ قال: الشريعة مُطبَّقة، نحن نتكلم عن مبادئ الشريعة.

قالت له: يعني تطبيق الحدود وقطع اليد وغير ذلك؟ قال: لالا لا هذه من المسائل الفرعية والفقهية!! فهذه الكلمة التي يرددونها كلمة حق أُريد بها باطل.

ثم ليس كل تحكيم بغير ما أنزل الله يكون كفرًا، وإلا فلو ظلم الرجل أحد أولاده كفر على هذا المبدأ؛ لأنك مطالب بتحكيم الشريعة في كل شيء، في نفسك وفي أولادك.

<u>متى يكون تحكيم غير ما أنزل الله كفرًا؟</u> إذا استحللت ذلك، أي اعتقدت وقلت قلت إن ذلك حلال ولو لم تحكم بغيرما أنزل الله، مجرد الاستحلال كفر بالله العظيم ، أو فضَّلت الحكم بغير ما أنزل الله على حكم الله،قلت: هو أفضل،أو جوَّزت الحكم بغير ما أنزل الله، قلت: هو جائز، أو قلت: هو مساوٍ للحكم بما أنزل الله.

أما مَن فعل ذلك من أجل الرِشوة، ومن أجل الدنيا، من أجل الكرسي فهذا لا يكفر وإن كان واقعًا في كبيرة من الكبائر.

▪ **<u>الشبهة الرابعة:</u>** يقولون: لم نبايعهم، كيف يكونون ولاة أمر لنا ونحن لم نبايعهم؟ ما بايعناهم.

نقول: هذه شُبهة قديمة.

قال ابن تيمية في قاعدة مختصرة في وجوب طاعة الله ورسوله وولاة الأمر: وما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب على الإنسان وإن لم يعاهدهم عليه، وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة، كما يجب عليه الصلواتُ الخمس والزكاة والصيام وحج البيت وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله ولم يسمع ذلك من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

لماذا تصلي وتزكِّي؟ هل سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يأمرك بذلك؟ ما سمعته يأمرك بذلك، وإنما الخطاب كان أولًا لأصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فليس شرطًا أن يبايعك أنت، طالما أن أهل الحَل والعقد بايعوه.

سُئل شيخ الإسلام ابن باز رَحِمَهُٱللَّهُ عن هذه الشُبهة، يعني ما بايعناهم؟

فقال: إذا اجتمع المسلمون على أمير وجب السمع والطاعة ولو لم يبايعهم بنفسه، كما في بيعة الصحابة للصدِّيق، فلم يكن بايعه كل أحد، وإنما الذين بايعوه مَن كانوا في السقيفة؛ في سقيفة بني ساعدة، ولم يبايعه كل المسلمين وإلافقد حجَّ مع النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف فأين هم يوم بيعة الصديق؟! ومع ذلك وجب عليهم السمع له والطاعة، فلا يلبس عليكم الخوارج بشبهاتهم وفقكم الله للرشاد.

يقولون كذلك:

▪ **الشبهة الخامسة:** هذه النصوص يُقصد بها الخليفة الأعظم خليفة المسلمين، وأما رؤساء الدول فلا يدخلون في هذه النصوص، لشغور الزمان من ذلك الإمام!!

فهذه الشُبهة تُرد بكلام أهل العلم في المسألة من قديم، وهو أنه لمَّا اتَّسعت الأقطار واستولى على كل قُطر سلطان، لم يعد للمسلمين خليفة واحد.

بخلاف ما مضي في صدر الإسلام، فقد كانت بلاد المسلمين تحت إمرة خليفة واحد، ولكن منذ زمن بعيد، بل منذ الدولة العباسية لمَّا خرج على الدولة العباسية عبد الرحمن الداخل وذهب إلى الأندلس وأقام دولة بني أمية في الأندلس التي

استمرت ثمانية قرون فهو من أدخل الإسلام إلى بلاد الأندلس، وكان ذلك وقت قيام الدولة العباسية, ومع ذلك كان لهم السمع والطاعة في الأندلس.

كما كان للخليفة العباسي السمع والطاعة في المشرق، فهذا أمر قديم، ولـمَّا اتسعت الأقطار واستولى على كل قطر سلطان اتفق العلماء على السمع والطاعة لكل سلطان على قُطره.

ونقل الإجماع على ذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب، وكذلك الإمام الشوكاني.

إذًا هذا الأصل كما قلنا: المخالفة فيه عظيمة، والذي ينظر في حال بلاد المسلمين الآن وما أصابهم من أجل الربيع العربي.

الربيع العربي وهو خريف عبري بتخطيط الصهيونية، ونفَّذه أبناء المسلمين يخربون بيوتهم بأيديهم. يخطِّط الصهاينة من أجل أن تُفتِّت دولتك بنفسك، لا يتدخلون لا بجيش ولا بعدة ولا عتاد ولا يخسرون نفسًا واحدة، وإنما أنت الذي تخسر، وأنت الذي تهدم بيتك ومؤسسات دولتك، وأنت الذي تفكِّك جيشك.

هذا الخريف العبري الذي دمَّر سوريا ودمَّر ليبيا ودمر العراق ودمر اليمن، وكاد أن يُدمِّر مصر لولا أن حرسها الله تبارك وتعالى ونجَّاها من هذه الفتن.

فانظر ما سبب ذلك؟ سبب ذلك هو التفريط في هذا الأصل:

إننا وإن تولَّى علينا حُكَّام ظلمة فلا بد علينا أن نصبر حتى يستريح بر أو يُستراح من فاجر كما قال السلف، ولا يجوز لنا أن ننزع يدًا من طاعة.

ولي أمر كل بلد مسلم بحسبه، وواجب على هذه البلد المسلم أن يطيعوه في غير معصية الله. أما أن يقال: ليس ولي أمرنا لأننا ما بايعناه،لأنه أخذها عُنوة، أخذها قهرًا، ولي أمرنا الرئيس المحبوس، أو ولي أمرنا الذي سيخرج من السرداب، أو ولي أمرنا الذي لم يولَد،هذا كلام مبناه على العاطفة والهوى، وليس مبناه على الشرع

والدليل. الشرع والدليل يقول لك: مَن تولى عليك وغلب عليك وقهرك هو ولي أمرك شئت أم أبيت، تحب ذلك، تُبغض ذلك أو تكرهه هذا في قلبك.

أما الواجب عليك أن تسمع وأن تطيع في غير معصية الله، لا يجوز لك أن تخرج لا بالكلمة ولا بالسيف ولا أن تنازعه ولا أن تولِّي غيره من أمير جماعة أو فِرقة أو غير ذلك. اصبر حتى يأتي الله بأمره.

الشبهة السادسة: خروج محمد بن عبد الوهاب على الدولة العثمانية

محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يخرج على الدولة العثمانية لماذا؟ لأن بلاد نجد في هذا الوقت لم تكن تحت سلطان الدولة العثمانية، كانت تحت السلطان بالاسم فقط، ولكن كانت قبائل ليس لها سلطان على أهل نجد، ما الذي حدث؟

محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا دعا إلى توحيد الله تبارك وتعالى كانت الدولة العثمانية الداعم الأكبر لعبادة القبور والطواف حولها والشرك والتصوف، وهذا يناقض التوحيد ويخالف كماله وأصله.

فحارب محمد بن عبد الوهاب عبادة القبور ودعا الناس للتوحيد، حارب الشرك فأفزع ذلك الدولة العثمانية، فماذا صنعوا؟

سلَّطوا عليه محمد علي باشا الذي كان يحكم مصر، سلطوه على الدولة الوهابية دولة التوحيد وعلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فحاربوه حتى قتلوا ولده وذبحوه، ولكن أراد الله شيئًا آخر.

انظر إلى الدولة السعودية الآن كيف انتشرت، وكيف هي تدعو إلى التوحيد.

أعظم دولة تدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك الآن هي المملكة العربية السعودية لماذا؟ لأنها قامت على توحيد الله وعلى سُنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فمَن رفع التوحيد وسُنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رفع الله ذِكره وأعزه ونصره، ومَن رفع غير ذلك أذلَّه الله تبارك وتعالى.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الأصل الرابع

(المتن)

الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء، وبيان مَن تشبَّه بهم وليس منهم، وقد بيَّن الله تعالى هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] إلى قوله قبل ذِكر إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ١٢٢] الآية.

ويزيده وضوحًا ما صرَّحت به السُنَّة في هذا من الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار مَن أنكره وعاداه وصنَّف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم.

(الشرح)

هذا الأصل أصل عظيم، يبيِّن فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما هو العلم والفقه ومَن هم العلماء والفقهاء.

فالعلم المقصود في كتاب الله وفي سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو العلم الشرعي، وكل مدح ورد في الكتاب والسُنة ينصرف ابتداءً إلى العلم الشرعي.

ما حد العلم الشرعي؟

هو العلم الذي بُني على كتاب الله وعلى سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى فَهم سلف هذه الأمة، فهذه القيود الثلاثة هي التي تبيِّن لنا حد العلم الممدوح في الكتاب والسُنة، والعالم هو مَن اقتفى هذه الأمور الثلاثة، في استدلاله واستنباطه، فكان كلامه

قائمًا على دليل من كتاب الله ومن سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن فَهم لأصحاب النبي رضي الله عنهم.

هذا هو الأصل الذي جاء في تفاسير السلف في تفاسير الآيات التي مدحت العلم، ولكن كما يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ صار العلم الآن يراد به العلم الحديث، أي العلم الذي هو قائم على التجارب والبحوث من العلم الطبيعي الفزيائي الكيمائي، يجعلون النصوص الواردة في رفع شأن العلم والعلماء في هؤلاء، وصار هَمُ الناس واهتمامهم إنما هو بهذا الأمر.

والأصل: أن ينصرف العلم كما قلنا للعلم الشرعي؛ إذ لا نجاة إلا بالعلم الشرعي.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فِرقة، كلها في النار إلا واحدة»** قيل: مَن هي يا رسول الله؟ قال: **«مَن كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»**.

فبيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطريق إلى النجاة؛ أن يعلم المرء دين ربه تبارك وتعالى من هذه الأمور الثلاثة.

وأما هذه العلوم التي يفتخر بها الناس فلا شك أنها علوم مهمة، أعني العلوم الدنيوية، ولكنها لا ترقى إلى أن تصل إلى منزلة الأصل، فهذه العلوم علوم آلة وليست علوم غاية.

هذه العلوم تعلمها فرض كفاية، والعلوم التي نذكرها تعلمها فرض عين، أو فرض كفاية هي أعلى مكانة من تلك العلوم.

هذه العلوم لا تُنجِّي صاحبها من النار إن لم يعرف ربه تبارك وتعالى ويؤمن بنبيه صلى الله عليه وسلم، وتحسن نيته في تسخيرها.

ولذلك إذا نظرنا إلى حال كثير من الحاصلين على أعلى الجوائز في هذه العلوم كجائزة نوبل مثلًا نجد أكثرهم لا يؤمنون بالله، فمنهم اليهودي، ومنهم النصراني، ومنهم البوذي، منهم الذي يعبد الشمس والقمر والبقر، أو يعبد عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فما أوصلتهم هذه العلوم الدنيوية إلى معرفة الواحد الأحد سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فكيف يُصرف العلم إذا ذُكِر ابتداءً إلى هذه العلوم؟

ثم إن هذه العلوم قد تجد بعضها يخضع إلى الصواب والخطأ، ليست حقائق، يعني يعتقد فيه الناس الصواب ثم هو بعد ذلك يتضح خطؤه، ككثير من النظريات التي يُفتن ويُعجَب بها الناس، ثم يتضح الأمر بعد ذلك إلى أن تصير هذه النظرية خطئًا ولا تكون صحيحة.

وأما العلم الشرعي: أما كتاب الله وسُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

فالقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد الذي تكلم به وأنزله تبارك وتعالى.

وكذلك سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تتعارض ولا تتناقض ولا نرى فيها الغلط والخطأ والتناقض، لماذا؟ لأنها كذلك وحي من قِبَل الله، فالسُنة وحي كالقرآن. قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»** أي من الوحي.

وقال الله تعالى عن نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسُنتي، ولن يفترقا حتى يرادا عليَّ الحوض»**.

فهذا يبيِّن لنا أهمية العلم بكتاب الله وبسنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالخشية الكاملة لا تكون إلا عند هؤلاء: إلا عند العلماء بالشرع، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] فالذي يخشى الله ويتَّقيه هو العالم بكتاب الله وبسُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العالم بأسماء الله وصفاته، العالم بحق الله تبارك وتعالى في ربوبيته وأُلوهيته، وقد لا يحصل ذلك بالعلوم الدنيوية.

تجد الكثير من هؤلاء ممن برزوا في العلوم الدنيوية بعيدين كل البُعد عن دين الله تبارك وتعالى, قد تجد منهم المُلحِد الذي ينكر وجود الله، تجد منهم الفاسق، وتجد منهم الذي لا يصلي، والذي يفعل المعاصي، الذي يرد سُنَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يخشى الله، فُتِنَ بعقله، وفُتِن بعلمه نسأل الله السلامة والعافية.

إنما الذي يخشى الله هو مَن عرف الله تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته، بربوبيته وألوهيته.

ثم العالم حق العلم الذي يعمل بعلمه، فلا يقتصر العالم على العلم والتعليم فقط؛ وإنما لا بد أن يعمل بعلمه، وإلا كان علمه حُجَّة عليه يوم القيامة.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كل الناس يغدو: فبائع نفسه فمعتقها أو مهلكها»** قال قبل ذلك: **«والقرآن حُجة لك أو عليك»** القرآن الذي تقرأُه إما أن يكون حُجة لك عند الله تبارك وتعالى وذلك بتحليل حلاله وتحريم حرامه، والعمل بمحكمه، والوقوف عند متشابهه، هكذا يكون القرآن حُجَّة لك.

أو حجة عليك بأن تقرأ هذه الآيات ولا تفعل شيئًا مما ذكرن، فيكون القرآن حُجة عليك يوم القيامة.

فالعالم بحق الذي جمع بين العلم النافع والعمل الصالح، وهذا هو الذي يورِث الخشية، وصاحبه حقاً هو من حصَّل ميراث النبوة.

ولذلك صنَّف كثير من أهل العلم في بيان أهمية أن يُتبع العالم علمه بالعمل، ومن هؤلاء مثلًا:

الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم جامع بيان العلم وفضله، عقد بابًا في هذا الكتاب في بيان ما جاء في مسائلة الله ﷻ العلماء يوم القيامة عمّا عملوا فيما علموا.

الله تبارك وتعالى يسأل كل مَن تعلَّم شيئًا يوم القيامة: ماذا عملت فيما علمت؟

وذكر عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: «أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَتَى بِهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا, فَقَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَقَالَ الله تعالى: كَذَبْتَ، وَلَكِنْ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَرِيءٌ، وَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ».

إذًا هذا عمل بعلمه «فَأَتَى بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنْ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ أَوْسَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ، فَأَتَى بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ أُنْفِقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا، فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنْ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ» أي كثير الإنفاق.

قال: «فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أَلْقِيَ فِي النَّارِ».

إذًا مَن علم شيئًا لا بد أن يعمل به، ولا بد أن يكون الإخلاص مقارنًا للعلم والعمل، فالعالم هو الذي يتعلم ابتغاء وجه الله، لا يتعلم ليماري بعلمه السفهاء، أو

ليجادل بعلمه، أو ليتباهى بعلمه على الناس، وإنما يتعلم ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى.

وكذلك في عمله: ينبغي أن يكون مبتغيًا وجه الله ﷻ.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد هذا الحديث: وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيمَنْ لَمْ يُرِدْ بِعِلْمِهِ وَعَمَلِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ قِيلَ فِي الرِّيَاءِ: إِنَّهُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، وَلَا يَزْكُو مَعَهُ عَمَلٌ، عَصَمَنَا اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ.

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسِ خِصَالٍ، عَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَأَيْنَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟».

فكل أمر من أمور الدين تعلمته ينبغي أن تعمل به، وينبغي أن تبتغي بذلك وجه الله تبارك وتعالى:

علمت أن الصلاة واجبة، أن الزكاة واجبة، أن الحج والعمرة واجبان، علمت أن الله فرض عليك صيام شهر رمضان، علمتِ أيتها الفتاة أن الحجاب واجب، علمت أن التزام حدود الله تبارك وتعالى أمر واجب، وأن ترك المنكرات أمر واجب، ينبغي أن تعمل على مقتضى ما علمت، وإلا كان علمك حُجة عليك يوم القيامة.

ولا يقولنَّ إنسان: إذن لن أتعلم؛ لأنه سيدخل في باب آخر وهو باب الإعراض عن العلم، وهو باب خطير جدًا، قد يؤدِّي بالمرء إلى أن يترك دين ربه تبارك وتعالى.

ومن أنواع الكُفر كما علمنا: كُفر الإعراض؛ أن يُعرِض المرء عن دين ربه لا يتعلمه ولا يعمل به. فالإنسان ينبغي له أن يتعلم، وأن يُخلص، وأن يعمل بما علم جعلنا الله وإياكم من هؤلاء.

وكذلك جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: إِنَّمَا أَخَافُ أَنْ يُقَالَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَعَلِمْتَ أَوْ جَهِلْتَ؟ فَأَقُولُ: عَلِمْتُ، فَلَا تَبْقَى آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى آمِرَةٌ أَوْ زَاجِرَةٌ

إِلَّا جَاءَتْنِي تَسْأَلُنِي فَرِيضَتَهَا، فَتَسْأَلُنِي الْآمِرَةُ هَلِ ائْتَمَرْتَ؟ وَالزَّاجِرَةُ هَلِ ازْدَجَرْتَ؟ فَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ.

وكذلك جاء عن الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: وَدِدْتُ أَنِّي قَرَأْتُ الْقُرْآنَ، ثُمَّ وَقَفْتُ ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَدِدْتُ أَنِّي أَفْلِتُ، أي أنجو مِنْ هَذَا الْأَمْرِ لَا لِي وَلَا عَلَيَّ. قَالَ سُفْيَانُ: وَمَا أَدْرَكْتُ أَحَدًا أَرْضَاهُ إِلَّا قَالَ ذَلِكَ.

يعني أن كل مَن أدركه من العلماء قال هذه المقالة يود أنه ينجو يوم القيامة لا له ولا عليه، لأنه سيُسأل عن هذا العلم الذي تعلمه.

وقال أبو الزاهرية وهو من التابعين: بَلَغَنِي أَنَّ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَبُثُّ الْعِلْمَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حَتَّى يَعْلَمَهُ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَالْحُرُّ وَالْعَبْدُ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ بِهِمْ آخَذْتُهُمْ بِحَقِّي عَلَيْهِمْ.

الكل يتعلم ويعلم دين ربه تبارك وتعالى، وحق الله في هذا العلم أن يُعمَل به.

إذًا العلماء هم العالمون بالله العاملون بما علموا، المخلصون لله تبارك وتعالى فيما عملوا.

<u>قال رحمه الله: بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء</u>

ما الفقه؟

الفقه في اللغة: الفَهم، مطلق الفَهم.

وأما الفقه في الدين: فهو العلم بالله وبأسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته، والعلم بما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سائر الأحكام، والعمل بذلك، فالفقه في الدين العلم والعمل معاً، وهذا من أعظم الأمور.

ولذلك لمَّا دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس قال: **«اللَّهم فقِّهه في الدين»** فالفقه في الدين أمره عظيم.

وقال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن يرد الله به خيرًا يفقه في الدين»** فإذا تفقَّه المرء في دين ربه وتعلَّمه فهذا دليل على أن الله أراد به خيرًا.

وبمفهوم المخالفة وبفحوى الخطاب أن مَن لم يتفقَّه في دين ربه هذا ما أراد الله به خيرًا، الذي يُعرِض عن تعلم الكتاب والسُنة وسيرة السلف الصالح وهديهم ونهجهم ويستبدل ذلك بزبالات الأفكار وبالتعصب وبالتقليد وبغير ذلك هذا ما أراد الله به خيرًا.

فعقد المصنف هذا الباب أو هذا الأصل ليبيِّن لنا ما العلم ومَن العلماء؟ وما الفقه؟ ومَن الفقهاء؟

الفقه بمعناه الشرعي: هو العلم بالله والعمل بذاك العلم.

وأما المعنى الاصطلاحي: فهو معرفة الأحكام الشرعية العملية المستمدة من أدلتها الجزئية.

معرفة الأحكام الشرعية العملية، وهذه المعرفة مستمدة من أدلتها الجزئية، فالعلم بوجوب الصلاة، وبوجوب الزكاة، وبحرمة الزنى بأدلته التفصيلية لكل مسألة هذا هو الفقه في الاصطلاح، بخلاف أصول الفقه الذي متعلقه الأدلة الكلية الإجمالية.

وأما الفقه في الدين فهو أعم من ذلك، يدخل فيه علم العقيدة وعلم التوحيد يدخل دخولًا أوليًا في ذلك.

قال: وبيان مَن تشبَّه بهم وليس منهم:

فهناك مَن تشبَّه بالعلماء، وصار الناس يسمونه عالمًا وليس بعالم، وإنما يتشبَّه بالعلماء وبأهل العلم. لا يملك رصيدًا من العلم، وهذا ضرره عظيم جدًا على نفسه وعلى الأمة.

ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤] لأن هذا الذي يتشبَّه بالعلماء لا يكف غالباً عن الكلام في دين الله، لا يتحرج أن يجيب في كل مسألة يُسألها، ويتحرج من قول: الله أعلم.

كل مسألة يُسأل فيها يجيب، لا يقول لا أعلم، بخلاف العالم العالم إذا سُئِل في بعض المسائل يقول: لا أعلم؛ لأنه يخشى الله تبارك وتعالى.

وأما أنصاف العلماء، بل أنصاف طلاب العلم فهم الذين يجيبون في كل مسألة، فتفسد الدنيا ويفسد الدين.

ولذلك قيل: يُفسِد الدنيا أربعة: نصف فقيه، ونصف نحوي، ونصف طبيب، ونصف متكلم.

نصف طبيب: هذا يُفسِد الأبدان؛ لأنه قد يتسبب في موت إنسان. ليس بطبيب حاذق فيصف دواءً معينًا يتسبب في موت إنسان.

ونصف نحوي: هذا يُفسد اللسان، والمراد اللغة لأنه لا يعلم اللغة الصحيحة فإذا تكلم بها أفسدها.

ونصف فقيه: هذا يُفسد الأديان؛ لأنه يفتري الكذب، ويُحرِّم ويُحلِّل بغير علم.

ونصف متكلم: هذا يفسد الأديان، والمقصود بنصف متكلم: المتكلم عند علماء الكلام هو الذي يتكلم في العقيدة والتوحيد، وهذه التسمية تسمية غير شرعية.

الشاهد: أن الذي يتكلم في أسماء الله وصفاته، في ألوهيته, في ربوبيته ولم يكن حاذقًا مستمدًا ذلك من الكتاب والسُنة وفَهم السلف يُفسِد هذه الأمور.

قال: وقد بيَّن الله تعالى هذا الأصل في أول سورة البقرة من قول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ١٢٢] الآية.

لو نظرنا في هذه الآيات التي ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه مخاطبًا بها بني إسرائيل، وما أكثر أن يخاطِب ربنا تبارك وتعالى بني إسرائيل لنأخذ منهم العبرة.

أكثر الأنبياء ذِكرًا في القرآن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأكثر أمة ذُكِرت في القرآن بنو إسرائيل، لماذا؟ لأنهم عارضوا وعاندوا وجحدوا نعمة الله تبارك وتعالى، فذكر الله قصتهم كثيرًا في الكتاب لنأخذ منهم العبرة.

يقول الله تبارك وتعالى لبني إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٠ - ٤٨].

ثم أخذ الله تبارك وتعالى يُعدِّد نعمه على بني إسرائيل في هذه الآيات إلى أن ذكر إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

لو نظرنا في هذه الآيات لتبين لنا هذا الأصل:

بنو إسرائيل جاءهم فضل ربهم تبارك وتعالى ونِعمة الله عليهم: أنزل الله تبارك وتعالى إليهم التوراة، وأرسل إليهم الرُسل، فكانوا أول الكافرين الجاحدين غير العاملين بما أُنزِل إليهم.

واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، ولم يتقوا الله تبارك وتعالى، ولبَّسوا الحق بالباطل.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢].

ولذلك لمَّا جاءهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ما كان منهم إلا أن جحدوا نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولمَّا سُئِلوا عن ذلك قالوا: العداوة ما حيينا، أي نلتزم العداوة تجاه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما حيينا، فجحدوا نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم أمرهم الله تبارك وتعالى أن يعملوا بهذا العلم قال: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣].

ثم عاد فنهاهم لمخالفتهم هذا العلم، فقال: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ [البقرة: ٤٤] إذًا فرض مَن تلا الكتاب أن يعمل بما فيه، وهذا هو العالم.

قال: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] فالذي يخالِف ما جاء في الكتاب، يخالف عمله ما تعلمه من الكتاب: هذا كمن ذهب عقله، الله تعالى يقول: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة: ٤٥] هذا هو العمل ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦] أي يوقِنون ﴿ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦].

ثم أخذ تبارك وتعالى يُعدِّد عليهم نِعمه التي أنعم بها عليهم.

إذًا ما الذي فعله بنو إسرائيل؟ عَلِموا وخالفوا بعملهم العلم فاستحقوا وصف الضلال، استحقوا وصف المغضوب عليهم، فالذي يعلم ولا يعمل بما يعلم هذا مغضوب عليه، والذي يعمل على جهل وضلالة هذا ضال.

ولذلك الناس ثلاثة أقسام:

مهتدٍ، ومغضوب عليه، وضال.

لا يخرج أصناف الناس عن هذه الثلاثة. ذكرهم الله تبارك وتعالى في سورة نقرأها كل يوم سبع عشرة مرة. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] هؤلاء هم المُنعَم عليهم، مَن هم؟ ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث عدي بن حاتم: **«اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»**.

وقال سفيان: كل مَن ضلَّ من علمائنا ففيه شَبه من اليهود، وكل مَن ضلَّ من عُبَّادنا ففيه شَبه من النصارى.

لأن العابد يعبد ربه على جهل، والعالم الذي يخالف علمه فَعل فِعْل اليهود.

فذكر الله تبارك وتعالى قصة بني إسرائيل لنعتبر بها.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويزيده وضوحًا ما صرَّحت به السُنَّة في هذا من الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد.

فإذا رجعت لهذا الكتاب إلى كتاب جامع بيان العلم وفضله مثلًا للإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تجد قد عقد كثيرًا من الأبواب في بيان فضل العلم، وفي بيان مَن هو العالم، وما يجب عليه، وفي بيان فساد التقليد ونفيه، وبيان الفرق بين التقليد والاتِّباع، لأن آفة الأمة الآن التعصب والتقليد.

الآفة التي تضرب بجذورها في الأمة الآن هي التعصب: التعصب للمشايخ، التعصب للأقوال، التعصب للأحزاب، التعصب للجماعات والفِرَق، إعجاب كل امرئ برأيه، فيترتب على ذلك الرد الصريح لكتاب الله وسُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرًا من الأدلة على ذلك:

منها: ما جاء عن عدي بن حاتم رضي الله عنه يقول: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ، فَقَالَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَا عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ أَلْقِ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ»** قال: وَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةٍ حَتَّى أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ.

جاء إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقرأ سورة براءة، فسمع النبي يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] هذه الآية عن النصارى، فقَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَمْ نَتَّخِذْهُمْ أَرْبَابًا، أي لم نعبد هؤلاء من دون الله، فَقَالَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«بَلَى»** أي قد اتخذتموهم **«أَلَيْسَ يُحِلُّونَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فَتَحِلُّونَهُ؟، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْكُمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ فَتُحَرِّمُونَهُ؟»** فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: **«تِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»**.

إذًا ماذا صنع هؤلاء؟ أمروهم أن يعبدوهم من دون الله فما أطاعوهم، ولكنهم أمروهم فجعلوا حلال الله حراماً، وحرامه حلالاً، فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية التي ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه.

فالإنسان إذا صار متعصِّبًا مقلِّدًا لغيره دون الوحي صار مثله كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] صار كالبهيمة، كالأصم الأبكم لا يعقل، مهما تلوت عليه من آيات وذكرت له الأحاديث فإنه لا يتعظ نسأل الله العافية.

ولذلك ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهمية التمسك بالكتاب والسُنة دون آراء الرجال، فقال: **«تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي أحدًا»** لم يقل تركت فيكم أبا بكر ولا تركت فيكم عمرَ، ولا تركت فيكم عليًا ولا عثمان، وإنما ذكر الأصل الذي ينبغي أن نرجع إليه، وأن نحاكم إليه كل أحد مهما علت رتبته، قال: **«كتاب الله وسُنتي»**.

فمَن تمسَّك بالكتاب والسُنة فلن يضل مهما كانت الفتن مصداقًا لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه- هذا العلم الحَبر الذي يأتي يوم القيامة يسبق العلماء برتوة بخطوة- كان عالمًا جليلًا رضي الله عنه وهو الذي أرسله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليعلِّم أهل الكتاب لمَّا قال له: **«إنك تأتي قومًا أهل كتاب، ليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحِّدوا الله»**.

كان معاذ بن جبل إذا جلس يكرر كلمات قلَّ ما تخطئه أن يقولها، وهي كلمات عظيمة.

يقول: اللَّهُ حَكَمٌ قِسْطٌ، هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ، إِنَّ وَرَاءَكُمْ فِتَنًا: يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهِ الْقُرْآنُ، حَتَّى يَقْرَأَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، وَالْمَرْأَةُ وَالصَّبِيُّ، وَالْأَسْوَدُ وَالْأَحْمَرُ، يقرأه العرب والعجم، يقرأون القرآن.

قال: فَيُوشِكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَمَا أَظُنُّ أَنْ تَتَّبِعُونِي، حَتَّى ابْتَدَعَ لَهُمْ غَيْرَهُ، يقرآ القرآن ولا يجد أحدًا اتَّبعه، فيزيغ ويضل.

يقول: قد قرأت القرآن فما أظن أن تتبعوني حتى ابتدع لهم بدعة أو ابتدع لهم غيره، فقال معاذ: فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَإِيَّاكَ وَزَيْغَةَ الْحَكِيمِ" أي لا نمنعك أن تتابع أحد العلماء وأن تأخذ بقوله في المسائل التي يطرحها، ولكن إن علمت أنه زاغ في مسألة من المسائل إياك وزيغةَ الحكيم، إياك أن تتعصَّب له، إياك أن تبحث عن الأمور والرخص التي تريد أن تُسلِّك بها هذا العالم وتُسلِّلك وتمرر قول العالم لتظن أو ليظن غيرك أن هذا القول صحيح.

يقول: وإياكم وزيغة الحكيم, فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ بِكَلِمَةِ الضَّلَالَةِ. الرجل يكون مستقيماً على دين الله وفجأة يزيغ، يتكلم بكلام أهل الضلال.

يقول: وَإِنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ، كما أن الكذوب قد يقول كلمة الصدق.

قال: فَتَلَقَّوَا الْحَقَّ عَمَّنْ جَاءَ بِهِ؛ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا. كيف تعرف أن هذا هو الحق؟ عليه نور من الكتاب والسُنة وفَهم السلف.

قَالُوا: وَكَيْفَ زَيْغَةُ الْحَكِيمِ؟ أنت بيَّنت لنا الحق، الحق عليه نور، وعليه دليل، فكيف نعرف زيغة الحكيم؟ قَالَ: هِيَ الْكَلِمَةُ تُرَوِّعُكُمْ وَتُنْكِرُونَهَا وَتَقُولُونَ: مَا هَذِهِ؟

إذا قال كلمة تقولون: ما هذا الكلام؟ ليس هذا من معتاد كلامه، هذا كلام غريب، وتقولون: ما هذه؟ فَاحْذَرُوا زَيْغَتَهُ، وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ عَنْهُ، إذا كان موافقًا للسُنَّة، هذا إن كان الأصل في كلامه وفِعالِه السُنَّة فإياك وزيغة الحكيم، ولا يصدنك ذلك عن الأخذ عنه.

بخلاف أهل البدع، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَفِيءَ وَأَنْ يُرَاجِعَ الْحَقَّ، وَإِنَّ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ مَكَانَهُمَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنِ ابْتَغَاهُمَا وَجَدَهُمَا.

الذي يبحث عن الحق لا بد أن يُهدى إليه، كما قال الله تبارك وتعالى في آخر سورة العنكبوت: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال: ثم صار هذا أغرب الأشياء.

الذي يتكلم بالدليل هذا صار عند الناس أغرب الأشياء، يقولون: جئت بدين جديد، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات.

صارت البدع والضلالة هي العلم عند الناس، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله تبارك وتعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون.

أضرب لك مثالًا:

ما حكم الصلاة في المساجد التي فيها قبور؟

الصلاة في المساجد التي فيها قبور حرام.

ومن أهل العلم مَن حكم ببطلان الصلاة.

ما الدليل على ما أقول؟ عشرات الأحاديث التي وردت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أحاديث متواترة في النهي عن الصلاة في المساجد التي فيها قبور.

يُترَك كل ذلك ويُتشبث بقول الله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١].

يُتشبث بقبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي في المسجد النبوي، فيتركون عشرات الأحاديث التي هي من قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويتشبَّثون بالمتشابهات، وليس لهم حق في ذلك.

مَن الذي قال واتخذ قرار بناء المسجد؟: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]؟

الذي أخذ العهد على نفسه أن يبني المسجد على أهل الكهف هم أصحاب الشوكة والسلطان ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] إذًا سيتم الأمر عن طريق القوة والشوكة وليس عن طريق العلم، هذا أولاً.

وأما مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يكن قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخل المسجد، وإنما كان في حُجرة عائشة خارج المسجد، فلما توسَّع المسجد في عهد الدولة الأموية أدخلوا القبر في مسجد النبي ولم يكن هناك واحدٌ من الصحابة، ولم يرض واحدٌ من العلماء بهذا الفعل.

إذًا هذا فِعل سياسي.

الأنبياء يُقبَرون حيث يموتون، النبي إذا مات في موضع قُبِر، هذا عام. أي نبي إذا مات في موضع قُبر.

أين مات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ في حُجرة عائشة، ولذلك قُبِر في حجرة عائشة.

لو مات في البقيع لدفن في البقيع. لو مات في غزوة من الغزوات لدفن مكان موته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُحمَل الأنبياء إلى مكان آخر وإنما يُقبَرون حيث يموتون. فقُبِر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حُجرة عائشة، ثم لمَّا كانت التوسعة في عهد الدولة الأموية أدخلوا حجرة عائشة بما فيها قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخل المسجد.

إذًا فضيلة المسجد سابقة على إدخال القبر في المسجد، فلا تُترك هذه الفضيلة لدخول قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى هذا إجماع العلماء.

ما الدليل على جواز الصلاة في سائر المساجد التي فيها قبور؟ لا يوجد دليل على ذلك.

وأغلب هؤلاء الذين يذهبون إلى هذه المساجد إنما يذهبون من أجل التماس البركة كما يقولون، والبركة من الله، فيقعون في الشرك. لماذا يشد الرجل الرحال من هنا إلى مسجد البدوي؟ إلى مسجد الحسين؟ إلى مسجد السيدة؟

هل الصلاة في هذه المساجد بمائة ألف صلاة؟ بألف صلاة؟ بل بخمسين صلاة؟ لا، هي كغيرها من المساجد. الصلاة في المسجد بسبع وعشرين درجة، في أي مسجد بخلاف المساجد الثلاثة: المسجد الأقصى، والمسجد الحرام، ومسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الصلاة في هذه المساجد بسبع وعشرين درجة. إذًا لماذا يشد الرحال من هاهنا إلى هذه المساجد؟ التماسًا للبركة، وهذا شرك، وهذا هو الشرك الذي دبَّ في قوم نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فإن الناس كانوا على التوحيد عشرة قرون منذ آدم إلى نوح عليهما الصلاة والسلام. ما عرفوا الشرك إلى أن ظهر الشرك في الخلق في قوم نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فتجد الواحد من هؤلاء ماذا يصنع؟ يترك عشرات الأحاديث ويتشبث بالمتشابه، يتشبث بالأحاديث الموضوعة: "مَن زارني حلت له شفاعتي"، "من حج ولم يزرني فقد جفاني" هذه أحاديث موضوعة مكذوبة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فتجد هؤلاء يتركون كل هذه الأحاديث ويتشبثون في ذلك.

سواءً كان القبر في قِبلة المسجد، وهذه أشدها حرمة، أو كان خلف المسجد، أو عن يمين المسجد، أو عن يساره، فلا تجوز الصلاة فيه مطلقًا.

لماذا؟ لأن ذلك إما أن يكون شركًا. ما ذهب الرجل ليصلي هناك إلا من أجل التماس البركةوإجابة سؤاله من قِبل المقبور، وهذا شرك.

وإما أن يكون ذريعة للشرك؛ فهو لم يقصد أن يلتمس البركة، ولكن مَن رآه خارج المسجد يقول: هذا ما دخل ليصلي هاهنا إلا من أجل أن ينال البركة ومن أجل أن يدعو المقبور، ومن أجل أن ينال الرضا –رضا الأسياد- كما يقولون، ومن أجل أن تُستجاب الدعوة، فيكون بذلك فتنة لغيره.

ولذلك قال العلماء: إن المسجد إذا أُدخل فيه قبر فواجب على المسلمين أن يخرجوا هذا القبر من المسجد، وإن المسجد إذا بُني على القبر فواجب عليهم أن يهدموا هذا المسجد لأنه صار مسجد ضرار.

إذا بُني المسجد أولًا، بُني لله، ثم أُدخِل فيه القبر فلا بد أن يُخرج هذا القبر من المسجد لأن المسجد بُني أولًا لله ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وأما إذا بُني المسجد على القبر فهذه دليل على أن المسجد إنما بُني للقبر ولصاحب القبر فهذا المسجد يُهدَم ولا يُصلَّى فيه.

وعلى هذا الأئمة الأربعة، بل على هذا علماء المسلمين.

فانظر إلى هؤلاء الصوفية يتركون عشرات الأحاديث ويتأولونها أو يردونها من أجل هذه المتشابهات أو الأحاديث الموضوعة.

الذي يجيء بهذه الأحاديث يقولون عنه: إنه زنديق، يُبغض الأنبياء، ويُبغض الصالحين، ويكرههم.

لو قلت لواحد من هؤلاء: لا تصل في مسجد فيه قبر كما عند البدوي، ولا في مسجد الحسين، نحن نحب أولياء الله الصالحين، ولكن كُلٌ له حقه الذي لا نتجاوزه:

الله له حق، والعبد له حق وإن كان وليًا من أولياء الله الصالحين، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له حق. كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعلِّمنا ذلك:

يقول: **«أشهد أني عبد»** يقول: **«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم»** أي لا تغلوا فيَّ **«اللَّهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبَد من بعدي»** و يقول **«لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** يقول هذا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في سياق الموت؛ ليبيِّن لنا الواجب الشرعي في هذه الأمور.

مَن حذَّر من هؤلاء ومن الصلاة في هذه المساجد يقولون عنه: إنه زنديق، لا يحب الأنبياء، ولا يحب الصالحين، يُبغِض الصالحين، أو مجنون، ذهب عقله فلا تسمعوا له إلى غير ذلك مما يُنفرون به العامة عنه. وصار مَن أنكره وعاداه وصنَّف في التحذير منه والنهي عنه أي التحذير من هذا الموحد السُّني:

الذي يُصنِّف في التحذير منك ويُحذِّر الناس من هذا العالم السُنِّي، الذي يفعل ذلك هو الفقيه العالم، وأما الذي يُحذِّر من الشرك فهذا إما زنديق وإما مجنون.

ولا تتعجب من ذلك: فقد وُصِف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على لسان هؤلاء بأنه ساحر وأنه كاهن وأنه شاعر، وأنه ما جاء إلا بأساطير الأولين.

وكذلك وُصِف شيخ الإسلام ابن تيمية، بل كُفِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لمَّا أصدر فتوى بعدم جواز نية شد الرحال إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتهموه وكفَّروه.

فإذا خرجت للحج أو العمرة لا بد أن تعقد النية أنك ما خرجت إلا من أجل أن تزور المسجد الحرام، من أجل الحج أو العمرة، أو من أجل أن تزور المسجد النبوي للصلاة فيه ونوال الأجر، ثم تكون زيارة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبعًا.

لكن تجد الواحدة من العاميات تُنشد: رايحة فين يا حاجة؟ راحة أزور النبي محمد، هذه النية لا تجوز؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي قال: **«لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»** وقال هذا قبل أن يُدفَن أو أن يعلم بمكان دفنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يقل لا تشد الرحال إلا إلى قبري.

فابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لمَّا قال: لا يجوز للمرء أن يعقد النية على شد الرحال إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع محبتنا للنبي كفَّروه, وسُجِن رَحِمَهُ اللَّهُ، وألفوا الكتب المتهافتة في الرد عليه، واتهموه بالزنَّدقة وبالجنون.

كذلك محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ مؤلِّف هذه الرسالة، لمَّا حارب الشرك والمشركين وعبادة القبور كذلك اتهموه وشنَّعوا عليه، وصاروا يصمون دعوته بالدعوة الوهَّابية تنفيرًا عنها.

تجد الآن الصوفية لا يتكلمون عن محمد بن عبد الوهاب إلا ويقولون: الدعوة الوهَّابية، كان عميلًا للإنجليز!! وهذا محض كذب وافتراء.

انظر إلى دولة التوحيد الآن وما تنشره من التوحيد والعلم والفضل وخدمة الحجيج والمعتمرين، وانظر إلى مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كم من حلقات من العلم تُعقد في مسجد النبي وفي المسجد الحرام!!

لا تجد شركًا في هذه البلاد، فهل العميل يقوم بذلك؟ فصار مَن أنكره وعاداه وصنَّف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم.

وذلك كله بسبب الجهل وبسبب الخلط الذي وقع عند الناس بسبب علماء السوء.

أسأل الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يرزقنا علماً نافعاً وأن يُنجِّينا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يثبِّتنا على دينه حتى نلقاه؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

۞۞۞۞

الأصل الخامس

هذا الأصل في بيان مَن هم أولياء الله؟ وفي بيان الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

بدأ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة بالكلام عن إخلاص العبادة لله، ثم أردف ذلك بالكلام عن الاعتصام بالكتاب والسُنَّة وهو سبيل الاجتماع وعدم الافتراق، ثم عن طاعة أولى الأمر في طاعة الله ورسوله في غير معصية الله.

وتكلم كذلك عن بيان مَن هم العلماء، ومَن هم الفقهاء، وأهمية تعلم العلم الشرعي والتفقه في الدين والعمل بذلك العلم ، فمَن اكتملت فيه هذه الأصول الأربعة فهو الولي.

إذًا هذا الترتيب مقصود: الذي يُخلِص العبادة لله، ويتابع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ, متمسِّكًا بالكتاب والسُنة، ويطيع مَن ولَّاه الله أمره في طاعة الله، ويحرص على تعلم دين ربه، وعلى التفقه في هذا الدين واحترام العلماء وتوقيرهم، وثني الركب أمامهم لينهل من علمهم، فمَن توفَّرت فيه هذه الشروط فهذا هو الولي.

فهذا الأصل الخامس مبني على الأصول التي قبله، قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(المتن)

الأصل الخامس: بيان الله سبحانه لأولياء الله، وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله والمنافقين والفجار، ويكفي في هذا آية في سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] الآية.

وآية في سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] الآية.

وآية في يونس وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

ثم صار الأمر عند أكثر مَن يدَّعِي العلم وأنه من هُداة الخلق وحُفَّاظ الشرع، إلى أن أولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل، ومَن تبعهم فليس منهم.

وفي بعض النُسَخ: ولا بد مِن ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولابد من ترك الإيمان والتقوى، فمَن تعهَّد بالإيمان والتقوى فليس منهم، يا ربنا نسألك العفو والعافية.

(الشرح)

الوَلاية في اللغة: بمعنى النُصرة والتأييد، والقرب، فالواو واللام والياء: أصل صحيح يدل على قرب ونصرة كما قال ابن فارس في مقاييس اللغة، وقال: الوَلاية بالفتح: النصرة، وقد تكسر. والوِلاية، بالكسر: السلطان والإمارة.

الولاية ولايتان: مثبتة ومنفية.

والوَلاية جاءت مرة مثبتة إلى الله تبارك وتعالى ومرة أخرى منفية، فأضاف الله تبارك وتعالى الأولياء إلى نفسه في آية يونس، قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

ونفى عن نفسه الولاية في سورة الإسراء، قال تعالى في آخر السورة: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

إذًا مِن الولاية ما هو مضاف إلى الله ومنها ما هو منفي عنه:

المضاف إلى الله: معناه أن الله ناصر ومؤيِّد أوليائه.

والمنفي: معناه أن الله لا يحتاج لولي ليؤيِّده ويسانده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ, فمن أسمائه: الحي القيوم، الذي هو قائم بنفسه وقائم على شئون عباده.

ومن أسمائه الصمد، أي الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجهم.

إذًا الولاية المثبتة معناها: نُصرة الله تبارك وتعالى وتأييده لأوليائه الصالحين.

والولاية المنفية، معناها أن الله لا يحتاج لولاية عن ذُلٍ وحاجة، فهو الغني الحميد سبحانه.

مَن الولي؟

الولي بيَّنه الله تبارك وتعالى في كتابه في سورة يونس، قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣], هذا هو الولي.

هذه الآية حددت لنا معنى الولي، وكيف يكون المسلم وليًا لله تعالى؛ لأن الولاية تُنال وتكتسب بالطاعة، وليست كالنبوة.

النبوة محض اصطفاء، يصطفي الله تبارك وتعالى مَن يشاء من عباده، فليست النبوة قائمة على الطاعة المكتسبة، أي: ليس كل مَن اجتهد في الطاعة يصطفيه الله ليكون نبيًا:

الأنبياء ما كانوا يعرفون أنهم سيكونون أنبياء، ولذلك لـمَّا جاء جبريل للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وضمَّه وقال له: اقرأ، قال: **«ما أنا بقارئ»**، وخرج إلى خديجة رضي الله عنها يقول: **«زملوني، زملوني»** ويقول: **«لقد خشيت على نفسي»**.

فلو كان يعلم أن النبوة ستأتيه يومًا ما خاف من جبريل وكان ينتظرها، وكذلك سائر الأنبياء، ما كان في ذِهن واحد منهم أنه سيكون نبيًا فاستعد وتهيأ لذلك، وإنما هو اصطفاء وليست اكتساباً فتنبه.

أما الولاية فقد يسعى المرء إليها، الذي يجتهد في الطاعة، وفي إخلاص العبادة لله، وفي متابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي فِعل الواجبات واجتناب المحرمات. هذا هو الولي. هذا يكون وليًا لله ينصره ويؤيِّده ربنا تبارك وتعالى.

إذًا مَن الولي؟

الولي: كل مؤمن تقي غير نبي. احفظ هذه الجملة.

كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] غير نبي، لأن النبوة أشرف من الولاية.

هل النبي من الأولياء؟ نعم هو سيد الأولياء، ولكن لا يقال عنه إنه ولي لأن هذا فيه انتقاص من قدره، إنما هو رسول ونبي، مصطفى مِن قِبَل الله تبارك وتعالى.

فالولاية أدنى من النبوة والرسالة. الولاية قد تكون لأناس كثيرين، وأما النبوة فلا تكون إلا لمن اصطفاه الله تبارك وتعالى.

فالولي: كل مؤمن تقي غير نبي كما عرَّفه بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وقد استنبط ذلك من هذه الآية التي في سورة يونس.

الولي كذلك: هو الذي يستقيم على دين الله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [فصلت: ٣٠] نطقوا بالكلمة واعتقدوا ذلك بقلوبهم وظهر ذلك على جوارحهم ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠], كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابي: **«قل: آمنت بالله, ثم استقم»** هذا الجواب قاله صلى الله

عليه وسلم لمَّا سأله، قال: يا رسول الله قل لي كلمة لا أسأل بعدك أحدًا عنها، أي كلمة ينجو بها، فقال: **«قل: آمنت بالله، ثم استقم»**.

وفي الآية الأخرى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

في آية يونس قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

إذًا الولاية الاستقامة؛ أن يستقيم المرء على دين الله تبارك وتعالى، وأن يتابع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكن لمَّا حدث لبس في مفهوم الولاية خاصة عند المتأخرين اقتضى ذلك أن يُنبَّه على مَن هم أولياء الرحمن، ومن هم أولياء الشيطان.

ولذلك ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه العظيم: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لأن من الناس مَن هو ولي للشيطان والناس يدَّعون فيه الولاية للرحمن، فهو لا يصلي ولا يصوم ولا يُزكِّي، يقول: سقط عني التكليف، وبلغت درجة اليقين، والله يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] مع أن المقصود باليقين في هذه الآية: الموت كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عثمان بن مظعون لمَّا مات، قال: **«أما هذا فقد جاءه اليقين»** يعني جاءه الموت.

هم يقولون: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] هذه مرحلة مَن وصل إليها سقط عنه التكليف، فتراه لا يصلي، ولا يصوم، ولا يزكي، ولا يغتسل من جنابة، ولا يحج.

بل أحيانًا يقول: أنتم تأخذون علمكم عن ميت عن ميت، ونحن نأخذ علمنا عن الحي الذي لا يموت. أراد هذا الأبعد أننا نأخذ الأحاديث من الكتب المسندة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا الحديث مَن الذي رواه؟

رواه البخاري، البخاري رواه عن مَن؟ عن شيخه، شيخه رواه عَن مَن؟ عن شيخه، وهكذا إلى أن يصل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيقولون: أنتم تأخذون علمكم ودينكم عن ميت عن ميت.

أنتم من أين تأخذون علمكم؟ يقولون: عن الحي الذي لا يموت، ويسمون ذلك بالعلم اللدني، وهذا ضلال مبين؛ لأن الوحي انقطع بموت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما الذي ينزل عليهم هو الشيطان، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فهناك أولياءٌ للشيطان وأولياءٌ للرحمن:

صفة أولياء الرحمن هي هذه التي ذكرناها، وسيأتي مزيد بيان لصفاتهم.

وأما أولياء الشيطان فهم الذين يخرجون عن هذه الشريعة، لا يتابعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا في الفهم ولا العمل أي صفة العبادة ، ترى منهم أمورًا عجيبة، ترى الواحد منهم يوصي مثلًا أن يُجعل له مقام أو ضريح بعد موته ليزوره الناس ويلتمسوا منه البركة، وهذا ضلال مبين؛ لأن الله قال: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا إني أنهاكم عن ذلك**».

فتجد هذا الولي المزعوم يوصي أهله أنه إذا مات يوصى أن يُقبَرَ في بيته، أو أن يُقبَرَ في مكان معين أو داخل المسجد، وأن يصير قبره ضريحًا يزوره الناس من بعده، يلتمسون البركة، ويضعون الأموال في صندوق النذور، ويشركون به عياذًا بالله، فهذا هو الولي عند كثير من المتأخِّرين.

بعض الناس إذا سألتهم: مَن الولي؟

يقول: المرسي أبو العباس، أو إبراهيم الدسوقي، أو عبد الرحيم القنائي الذي في الصعيد، أو البدوي، أو ...

ولو نظرت في حال هؤلاء المذكورين المعدودين في الأولياء لوجدت بعضهم مخالفين، لم يكونوا من الولاية في شيء:

فالبدوي هذا أحمد بن علي بن يحيى الفاسي كان تاركًا للعبادة، وكان يسيرًا عُريانًا بين الناس، يقف فوق بيته يتبول على الناس إذا مروا، وله كثير من الخرافات والأمور الشنيعة، وهذا من كراماته، وهو من سادة الأولياء عند كثير من المتأخرين.

مولد البدوي يُعقَد مرتين في السنة:

أحدهما في شهر أكتوبر، وقد زار قبره ومسجده أكثر من مليونين من شتَّى بقاع الأرض في أكتوبر الماضي, وكان في مولده رؤوس الصوفية في بلدتنا في مصر، كان مولده يوم الخميس، في يوم الجمعة نقلت إذاعة القرآن الكريم صلاة الجمعة من مسجد البدوي، فكان يصلي هناك كثير من أصحاب العمائم من أجل إحياء ذكرى مولده، والتماس البركة، نسأل الله أن يبصرهم بالحق.

فصار هذا هو الولي عند الناس، وهذا غلط كبير؛ لأن الولي لا يحتاج إلى أن يكون له ضريح يقصده الناس، بل هذا من الشرك، وهذا من نقض الولاية.

مَن أمر الناس بذلك ووصى به فهو ولي للشيطان وليس وليًا للرحمن، الولي هو الذي يقف عند حدود الشرع.

ولذلك لمَّا قيل للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنني أرى رجلًا يطير في الهواء ويمشي على الماء، هل أُصدِّقه؟

فقال الشافعي و الليث كذلك: لا تصدقه حتى تعرض عمله على الكتاب والسُنَّة.

لأن بعض الناس الآن تجده يأتي بحديدة يدقُها في رأسه كما يفعل دجالو الطريقة الرفاعية، أو سكين يضعه في بطنه، ويُخرِج هذا السكين دون أن يصاب بمكروه، ويُخرج هذه التي دقَّها في رأسه كذلك دون أن يصاب بمكروه. يقولون: ولي من أولياء الله، وهؤلاء شياطين تُعينهم الشياطين، لماذا؟

لأن هذا ليس من الولاية في شيء، إنما الولاية الاستقامة.

فكل مَن خرج على دين الله وغيَّر دين الله ودعا إلى عبادة القبور والأضرحة والسحر والكهانة وغير ذلك، هذا ليس وليًا لله.

ولذلك قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويكفي في هذا آية في سورة آل عمران، آية توضِّح مَن هو الولي.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] هؤلاء الصوفية يزعمون أنهم أعظم الناس حبًا لله وحبًا لأولياء الله. هذه الآية آية الامتحان تفضحهم كما قال الحسن البصري: ادَّعى أناس محبة الله تبارك وتعالى فامتحنهم بهذه الآية.

الاتِّباع دليل المحبة، ولزوم الأمر دليل المحبة. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١] يا مَن تزعمون أنكم تحبون الله دليلك في محبة الله متابعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

إذًا لو رأينا هذا الذي يزعم الولاية يطير في الهواء أو يسير على الماء ويفعل ما يفعل بجسده دون أن يصيبه المكروه فاعلم أن هذا من الابتلاء والفتنة التي أصابته وأن هذا من مكر الشيطان به لأنه ليس متابعًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هم يدعون محبة الله ورسوله، والمحبة عبادة، بل هي أعظم العبادة، والعبادة لا تكون إلا بشرطين: بالإخلاص والمتابعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بعضهم يقول -هذا مذكور عن رابعة العدوية-: نحن نعبد الله لا خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته، وهذا ضلال مبين، لماذا؟

لأن الله تبارك وتعالى لمَّا ذكر الأنبياء قال: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠] أي رجاءً في رحمة الله وفي جنتة ، ورهبًا أي خوفًا من ناره.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في دعائه: **«وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم»** كان يسأل الله الجنة وما يقرِّب إليها من قول أو عمل، ويستعيذ بالله من النار وما يقرِّب إليها من قول أو عمل، وهذا سيد الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف لهؤلاء الضلَّال أن يقولوا بعد ذلك: اللّهم إنا نعبدك لا خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنتك، فهذا تنطع، وهذا خلاف هَدي الأنبياء.

فالمحبة دليلها: متابعة الأنبياء، هذه الآية الأولى.

قال: وآيةٌ في سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] بأوليائه الصالحين، وهذه صفتهم: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤], هذه الصفة الثانية﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهذه الصفات التي ذكرها الله تبارك وتعالى في هذه الآية هي كذلك صفات أربعة لأولياء الله الصالحين:

يحبون الله ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، ترى عندهم لينَ الجانب للمؤمنين، وترى عندهم العزة على الكافرين. ترى عندهم محبة الله، فهو يحبهم وهم يحبونه، ولازم ذلك أنهم لا يحبون القبور، ولا عبادة القبور، لا يُفضِّلون المقبور على محبة الله تبارك وتعالى وطاعته فيما أمر والكف عما نهى عنه وزجر.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥], تكون محبتهم لهذه القبور كمحبة المؤمنين لله عياذًا بالله.

فتجد بعض هؤلاء لو كان بينك وبينه أمر ما، يقول لك: احلف، فتقول: والله، أو وربِّ الكعبة، فقد لا يصدِّقك. لو قلت: والبدوي، أو والحسين يصدِّقك عياذًا بالله؛ لأن هؤلاء لهم عنده قدر في قلبه عياذًا بالله أعظم من قَدْر الله.

قصة عجيبة تبين غربة الدين وانتشار الجهل به

وقد ذكر بعض علمائنا أنه كان يركب سيارة في طنطا الغربية، وهذا هو موطن قبر البدوي، فمرت هذه السيارة بجوار قبر البدوي، فجاءه سائل وسأله ، فأعطاه جنيهاً، فقال له: سألتك بالبدوي أن تعطيني خمسة جنيهات، وهذا عالم موحِّد يعلم أن هذا من الشرك**«إذا سألت فاسأل الله»** لا تسأل أحدًا من المخلوقين.

فما كان من هذا العالم إلا أن قال للسائق المصري، وهذا العالم لم يكن مصريًا، قال لهذا السائق: انطلق، وأخذ منه الجنيه ولم يعطه شيئًا. فظل هذا السائق يتمتم يخشى أن يصيبه البدوي بمكروه، لأن السائل سأله به ولم يُجِبه، فظل العالم يُهدِّئ من روعه، ويقول له: لن يحدث شيئ، هذا مخلوق مثلك.

فلما أن وصلوا إلى مقصدهم ولم يُصب السائق بمكروه، قال له هذا العالم: هل حدث شيء؟ فما كان من السائق إلا أن قال: إن البدوي رحيم!!! عياذًا بالله.

يعني لم يصبهم البدوي لرحمته بهم، فانظر إلى أي مدى وصل الشرك عند هؤلاء!!

وهذا تجده كثيرًا خاصة في وجه قبلي في الصعيد. أنا ذهبت إلى النوبة وأسوان والصعيد. هناك من القرى ما لا تخلو شوارعها من تلك المقامات والأضرحة لهؤلاء الأولياء المزعومين، ما من مسجد إلا وبجواره مقام. نسأل الله السلامة والعافية.

قال: وآية في يونس وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] مَن هم؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٦٣] آمنوا بقلوبهم، فاعتقدوا ونطقوا بلسانهم، وصدَّقوا بالجوارح، وسعوا في زيادة إيمانهم بمتابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢] والتقوى: فِعل المأمور وترك المحظور.

هؤلاء لا يُصلون، تجد الواحد منهم ينام أمام مسجد البدوي أو مسجد الحسين، فإذا نبهته وقلت له: هذا وقت صلاة يقول: دعني قد صليت في المسجد الحرام!! شيطانه يسوِّل له أنه حمله وصلى مع الناس في المسجد الحرام وهو في مكانه أمام الضريح، فتراهم يتركون الصلاة.

قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢] أي يفعلون المأمور ويتركون المحظور، ولا يلتمسون البركات والكرامة من الشياطين، إنما البركة من الله.

ما جزاء أولياء الله في هذه الآية, قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]:

البُشرى في الحياة الدنيا: أن يُثبِّتهم الله عند السؤال وعند سكرات الموت ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

البشرى في الحياة الدنيا: أن يُسدِّده الله في حياته، أن يوفِّقه للهداية والطاعة والاستقامة إلى أن يلقاه، أن يجنبه الله الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وأما البشرى في الآخرة: فهي دخول الجنة، والله تبارك وتعالى وعدهم بذلك ووعده صدق، ولذلك قال في آخر الآيات: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فالله يُخرِج وليه من الظلمات الكثيرة: من فتنة الشهوات والشُبهات إلى النور يُسدده ويوفقه.

وأما أولياء الشيطان فطواغيتهم من المقبورين والشياطين يخرجونهم من النور والهداية إلى الظُلمات، إلى أن يخرجوا عياذًا بالله من دين الله، نسأل الله السلامة والعافية.

قال: ثم صار الأمر عند أكثر مَن يدَّعِي العلم وأنه من هُداة الخلق وحُفَّاظ الشرع، إلى أن أولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل:

فالولي عند المتأخرين يترك اتِّباع الرسل، بل لو سمعت كثيرًا من حالهم لتعجَّبت: إنهم يدَّعُون أمورًا ليست إلا لله، لا لَمَلَكٍ ولا لنبي.

■ فهذا الشيخ فرغل وهو من أولياء الصعيد المزعومين:

ذكر عبد الوهاب الشعراني في طبقاته الكبرى للصوفية: أن رجلًا كان يسير بابنته بجوار نهر النيل، فما كان إلا أن خرج تمساح من هذا النهر وأخذ ابنته، خطفها والتقمها وعاد مسرعًا إلى النهر، فذهب هذا الرجل يبكي إلى شيخه فرغل ويشكو له حاله.

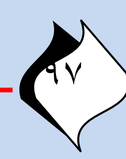
فما كان من فرغل هذا إلا أن قال: أو قد فعلها هذا الخبيث في منطقتي!! اذهب إلى الموضع الذي أخذ فيه ابنتك، ونادِ هذا التمساح وقل: إن سيدك فرغل يريدك الآن، هذا والله مذكور عنهم في كُتبهم.

فما كان منه إلا أن ذهب إلى هذا الموضع، وقال كما قال له الفرغل، وحدثت المعجزة والكرامة!! خرج التمساح من الماء وصار وكأنه يعرف بيت الفرغل هذا، حتى وقف أمامه والناس مندهشون، فأخذ يوبِّخه ويزجره والتمساح يبكي، ثم كسَّر أسنانه، وأمره أن يلفظ الجارية، فلفظها، فقامت إلى أبيها، ثم أخذ عليه العهد ألا يفعل ذلك مرة أخرى، فاستدار التمساح وعاد إلى النهر يجر أذيال الخيبة وقد علته كسرة الذل, ولم يعد إلى هذا الأمر مرة أخرى.

وهذا مذكور في كُتبهم، وهذه بعض الخرافات التي ذكرها النبهاني في كتاب: جامع كرامات الأولياء وهو من الكتب التي يحتفون بها . ذكر عن شيخه الشعراني هذا صاحب الطبقات.

وكتاب الطبقات هذا أي طبقات الشعراني تجدونه عند الجامع الأزهر في درب الأتراك طبعاته تكاد تصل المائة، يُطبع كثيرًا لكثرة هؤلاء المخرِّفين في بلدنا.

ذكر عن شيخه الشعراني عن معاصره الولي الصوفي حبيب المجذوب، كان مجنونًا، والناس عندها سوء فَهم في مسألة الولاية.



لَمَّا تجد إنسانًا لا عقل له، قد اتسخت ثيابه، وسال الماء من فمه، يقولون: هذا ولي من أولياء الله، هذا كَذب؛ لأن الولي لا بد أن يكون مكلَّفًا عاقلًا، قائمًا بالشرع، وهذا يتبول على نفسه، ولا يتحرز من النجاسات، ولا عقل له, فكيف يكون وليًا لله؟

■ يقول الشعراني: إن سيدي حبيبًا المجذوب ليس له كرامة إلا في آذية الناس. هذه كرامته! هذا هو الولي الشِّرير!! كان كلما نظر إليَّ إذا مررت عليه حصل عندي قبض عظيم، يصاب إذا نظر إليه بضيق في الصدر، ولم أزل ذلك النهار كله في تكدير، فلما مات قال سيدي علي الخواص: الحمد لله على ذلك، هذه كرامة.

■ وهناك ولي كان يتمدد وينكمش، ذكر النبهاني في كتابه جامع الكرامات عن تارك الصلاة الولي حسن قضيب اللبَّان الموصلي من الموصل من العراق، كان يترك الصلاة، هذا كذلك من الكرامات، رُفِع عنه التكليف، وكُشِف له الحجاب!!

قال الشيخ العارف أبو الحسن: دخلت على الشيخ قضيب اللبَّان الموصلي ببيته بالموصل، فرأيته ملأ البيت- يعني بلونة!!- قال: فهالني ما رأيتُ من نموه الخارق، ثم خرجت وعدت فرأيته في زاوية من زوايا البيت مثل العصفور! ثم خرجت ثم عُدت فرأيته كالعادة! عاد إلى ما كان إليه، فسألته عن المرتين: فقال: أرأيت ذلك؟ قلت: نعم، قال: لا بد أن يصيبك العمى، قال: فعمي قبل وفاته بقليل!!!

■ وكذلك من نفس المصدر: كان بعض هؤلاء الأولياء يُخَلِّي جسده ويصير كالفخار لا روح فيه، يصير جسده كهذه الأجساد والأصنام التي تُصنع من الفخار، إذا مسسته صار كالحَجر، لا روح فيه، كان يمكث على ذلك ثلاثة أيام ثم يعود إلى ما كان عليه.

■ وقال الشعراني: ومنهم أبو محمد عبد الرحيم المغربي القِناوي، يقول: وهو من أجلاء مشايخ مصر المشهورين وعظماء العارفين، صاحب الكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة، له المحل الأرفع من مراتب القُرب والمنهل العذب.

مرَّ عليه كلبٌ، فقام له إجلالًا. فقيل له في ذلك، قال: رأيت في عُنقه خيطًا أزرق من زِي الفقراء أي الصوفية.

■ قال الشعراني: ومن هؤلاء الأولياء الشيخ أبو الخير الكُليباتي رضي الله عنه، كان من الأولياء المعتقدين، وله المكاشفات العظيمة مع أهل مصر وأهل عصره، وكان أغلب وقته واضعًا وجهه في حِلق الخلاء في ميضأة جامع الحاكم، أغلب وقته في الحمام يضع وجهه مكان قضاء المرء حاجته، هذه كرامته!! وكان يدخل الجامع بالكلاب.

■ قال الشعراني: ومنهم سيدي يوسف العجمي الكوراني، وهو أول مَن أحيا طريقة الجُنيد رضي الله عنه بمصر، ولقد وقع بصره يومًا على كلب، فانقادت إليه جميع الكلاب: إن وقف وقفوا، وإن مشى مشوا، وأعلموا الشيخ بذلك، فأرسل خلف الكلب وقال: اخسأ، فرجعت عليه الكلاب تعضه حتى هرب منها.

■ وهذا الرفاعي أحمد الرفاعي، أحمد الرفاعي هذا هو البدوي، يبدأ مَن لقيه بالسلام، حتى إنه يُسلِّم على الأنعام والكلاب، كان إذا مر على البهائم يُسلِّم عليها، على الكلاب يُسلِّم عليها، وكان إذا رأى خنزيرًا يقول له: أنعم صباحًا!! فقيل له في ذلك؟ قال: أُعوِّد نفسي الجميل.

هذا غاية التنطع وما كان يفعله لا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ولا واحدٌ من السلف أنه كان يُسلِّم على الكلاب وعلى البهائم، وإنما السلام هي تحية الإسلام لأهل الإسلام، فهذا من التنطع ومن الضلال عياذًا بالله.

■ وكان بمكة عند باب السلام واحدٌ من المجاذيب، وإذا خرج وأحدٌ من الناس ذكرًا كان أو أنثى قبض على فرجه!! هذه كرامتة يقف عند باب السلام عند مسجد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومَن قبض على فرجه ذلك المجذوب -كما تقول الرواية وبئست الرواية- لم يعص الله أبدًا.

هذا ضلال وكذب, ويصدِّقه هؤلاء عياذًا بالله.

■ وقال المحدث الصوفي أحمد بن صديق الغماري: قال الشعراني في مقدمة كتابه الفُلك المشحون في أن التصوف هو ما تخلق به العلماء العاملون في ترجمة أفضل الدين، وكان يعرف أصحاب الجنة برؤية وجوههم وأهل النار برؤية وجوههم من غير رؤية أعمالهم.

يعني هذا المسمى بأفضل الدين كان إذا رأى الرجل يقول: أنت من أهل الجنة، دون أن يدري شيئًا عن عمله، إذا رأى الآخَر يقول: أنت من أهل النار، فقيل له: متى عرفت ذلك؟

فقال: من يوم ألست بربكم؟ الله تبارك وتعالى لـمَّا خلق آدم مسح على ظهره، واستخرج من ظهره كل نسمة كائنة إلى يوم القيامة.

ذرية آدم نثرهم الله تبارك وتعالى أمام آدم عليه السلام ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهذه هي الفطرة، فإنه ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة على التوحيد، فأبواه يهودانه أو ينصِّرانه أو يُمجِّسانه.

قيل لهذا الذي يسمى بأفضل الدين: كيف عرفت أهل النار من أهل الجنة؟ قال: من ذلك اليوم، فقيل له: فما عدد أهل الجنة الذين لا تمسهم النار؟ فقال: ما يحصل من ضرب ألف ألف في ألف ألف ألف ألف ألف.. تسع مرات، وسُدسٌ في مثلها، لا يزيدون واحدًا ولا ينقصون!!!!!

فقيل له: فما عدد مَن يدخلوا النار من الكفار والموحدين؟ فقال: هذا غيب لا يعلمه إلا الله!!

■ يذكرون عن بعضهم أنه لمَّا قبض ملك الموت روحه، وصعد ملك الموت بهذه الروح إلى الله تعالى جاء هذا الذي قُبضت روحه لوليه من شياطين الإنس وحدَّثه في ذلك، وأراد منه أن يكون بجانبه ينافح عنه في قبره، فما كان من هذا الولي إلا أن نازع ملك الموت في الروح وأخذها منه، وأعادها مرة ثانية إليه**!!**

ثم إن الذي نراه الآن أن مساجد هؤلاء الأولياء تمتلئ بكثير من المنكرات: الأغاني والرقص والزغاريد من النساء في قلب المسجد، والاختلاط عياذًا بالله، والشرك، وغير ذلك من هذه الأمور.

فهذه الأمور ليست من الولاية في شيء.

ولذلك قال شيخ الإسلام في رسالته العبودية: وَكثير من السالكين- أي هؤلاء الصوفية- سلكوا فِي دَعْوَى حب الله أنواعًا من أُمُور الْجَهْل بِالدّينِ: إِمَّا من تعدِي حُدُود الله، وَإِمَّا من تَضْيِيع حُقُوق الله.

يتعدَّى حدود الله فينسب لنفسه أو ينسب المعتقِد فيه إليه ما هو لله تبارك وتعالى من إحياء الموتى ومن الرزق ومن النفع والضُر وغير ذلك.

وإما من تضيع حقوق الله، فتراه لا يصلي ولا يصوم ولا يُزكي ولا يتنزَّه عن النجاسات، وَإِمَّا من ادِّعَاء الدَّعَاوَى الْبَاطِلَة الَّتِي لَا حَقِيقَة لَهَا، كَقَوْل بَعضهم: أَي مُرِيد لي ترك فِي النَّار أحدًا فَأَنا برِئ مِنْهُ، فَقَالَ الآخر: أَي مُرِيد لي ترك أحدًا من الْمُؤمنِينَ يدْخل النَّار فَأَنا مِنْهُ بَرِيء.

فَالْأول جعل مريده يخرج كل من فِي النَّار، وَالثَّانِي جعل مريده يمْنَع أهل الْكَبَائِر من دُخُول النَّار.

يعني هذا أراد أن يجمع بعض الناس حوله، كأنها انتخابات وتجميع أصوات**!**

فيقول: الذي يتابعني يوم القيامة والذي يريد أن يُدخله الجنة سيُدخِله، هكذا قال.

والثاني قال: الذي سيتابعني يوم القيامة لو لم يُرد أن يدخل أحد النار لم يُدخله، هذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض هؤلاء.

وَيقُول بَعضهم: إِذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة -كان هاهنا تامة، أي إذا جاء يوم القيامة- نصبت خَيْمَتي على جَهَنَّم حَتَّى لَا يدخلهَا أحد.

كلما أراد الله أن يُدخِل أحدًا ردَّه هذا الولي عياذًا بالله! يقولون هذا الكلام، ويعتقدونه.

وأمثال ذَلِك من الْأَقْوَال الَّتِي تُؤثر عَن بعض الْمَشَايِخ الْمَشْهُورين، وَهِي إِمَّا كذب عَلَيْهِم وَإِمَّا غلط مِنْهُم.

وَمثل هَذَا قد يصدر فِي حَال سكر وَغَلَبَة وفناء يسْقط فِيهَا تَمْيِيز الْإِنْسَان أَو يضعف حَتَّى لَا يدْرِي مَا قَالَ.

ثم بيَّن غلطهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم قال: وَلِهَذَا أنزل الله محنة يمْتَحن بهَا الْمُحب فَقَالَ :

﴿ قل إِن كُنْتُم تحبون الله فَاتبعُونِي يحببكم الله ﴾[٣١ آل عمرَان] فَلَا يكون محبًا لله إِلَّا من باتباع رَسُوله، وَطَاعَة الرَّسُول ومتابعته لَا تكون إِلَّا بتحقيق الْعُبُودِيَّة، وَكثير مِمَّن يَدعِي الْمحبَّة يخرج عَن شَرِيعَته وسنته صلى الله عَلَيْهِ وَسلم،وَيَدعِي من الْحَالَات مَا لَا يَتَّسِع هَذَا الْموضع لذكره. ذكرنا بعضها وهذه التي يسمونها كرامات.

حَتَّى قد يظنّ أحدهم سُقُوط الْأَمر وَتَحْلِيل الْحَرَام لَهُ، وَغير ذَلِك مِمَّا فِيهِ مُخَالفَة شَرِيعَة الرَّسُول وسنته وطاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رَسُوله الْجِهَاد فِي سَبيل الله، وَالْجِهَاد يتَضَمَّن كَمَال محبَّة مَا أَمر الله بِهِ، وَكَمَال بغض مَا نهى الله عَنهُ، ولهذا قال في صفة مَن يحبهم ويحبونه: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولهذا لمَّا كان الإنجليز يحتلون بلاد الهند، وكانت هناك حركة مقاومة وجهاد ضدهم، أخرجوا لهم رجلًا صوفيًا ادَّعى أنه المهدي، وهو مرزا غلام أحمد، وهذا له أتباع كثيرون الآن في شرق آسيا، فادَّعى أنه المهدي، ثم ادَّعى النبوة، وأسس فرقة ا الأحمدية الضالة المارقة لو تسمعون عنها.

هذه الطريقة أساسها في الهند، وعلى طريقتهم علي الجفري الخبيث وليس الحبيب ، يزعم أن الولي يخلق، هذا موجود بالصوت والصورة، وذهب إلى اليهود وكان في حمايتهم، وزعم أنه ذهب ليصلي في المسجد الأقصا.

ولمَّا وقف ليتكلم يومًا ما قال: أنا أحب اليهود ولا أجد في قلبي أي عداوة لهم، مع أنهم أشد عداوة للمؤمنين. فمع أن الله يقول عن أوليائه: ﴿أَذِلَّـــــةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤], وهو يُبغِض أهل السُنَّة جدًا, ﴿أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكَافِـرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] تجده لِين الجانب جدًا مع الكفار مع اليهود والنصارى ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال: وَلِهَذَا كَانَت محبَّة هَذِه الْأمة لله أكمل من محبَّة مَن قبلهَا وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم، وأكمل هَذِه الْأمة فِي ذَلِك هم أَصْحَاب مُحَمَّد صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، وَمن كَانَ بهم أشبه كَانَ ذَلِك فِيهِ أكمل، فَأَيْنَ هَذَا من قوم يدعونَ الْمحبَّة ويأتون بهذه الخرافات؟

ولأجل ذلك كله عقد المصنف هذا الأصل الخامس ليبيِّن لنا الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

إذن: ما تعريف أولياء الرحمن؟ مَن الولي في الشرع؟ كل مؤمن تقي غير نبي، الذي يستقيم على دين الله، ويتابع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، يحب المؤمنين، يُبغِض الكافرين والمشركين، يجاهد في سبيل الله، التقي، المؤمن.

مَن أولياء الشيطان؟ الذين تركوا كل ذلك، تراهم يُشركون في العبادة: يذبحون لغير الله، ينذرون لغير الله، يدعون غير الله عياذًا بالله، لا تجد عندهم فِعلًا للطاعات ولا اجتنابًا للمحرمات، بل تجدهم تاركين لدين الله، يتمسَّكون بأمورٍ ليست من دين الله.

الموالد ليست من شرع الله، الابتهالات ليست من شرع الله، هذه التي تقام في بعض المساجد يأتي المولد النبوي فتجد في بعض مساجدنا مَن يأتي بمبتهل وقارئ للقرآن ومَن يُلقي كلمة، هذه الابتهالات ليست من دين الله وهي أشبه بالغناء فضلا عن اشتمالها على شركيات وغلو..

الولاية تعني الامتثال والمتابعة. هل كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك؟ إذًا هذه بدعة.

هل كان الصحابة يفعلون ذلك؟ هذه بدعة، لأن المقتضي كان موجوداً ومع ذلك تركوا، فالترك عبادة كما أن الفعل عبادة.

وكما قال مالك رحمه الله وطيب ثراه: السُنَّة سفينة نوح، سُنَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سفينة نوح، مَن ركبها نجا، ومَن تركها هلك وغرق.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من الناجين في الدنيا والآخرة؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.



الأصل السادس

(المتن)

الأصل السادس: رد الشُّبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسُّنَّة، واتِّباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وهي أن القرآن والسُّنَّة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافًا لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر.

وفي نُسخة: إلا في أبي وعمر.

قال: ومَن طلب الهُدى منهما.

(الشرح)

أي من الكتاب والسُّنَّة على قول هؤلاء.

(المتن)

فهو إما زنديق، وإما مجنون لأجل صعوبة فهمها، فسبحان الله وبحمده، كم بيَّن الله سبحانه شرعًا وقدرًا، خلقًا وأمرًا في ردِّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

(الشرح)

ثم ذكر بعض آيات من صدر سورة يس، وختم هذه الرسالة المباركة.

الأصل السادس في ردِّ شُبهة وضعها هؤلاء القبوريون والمقلِّدون المتعصِّبون لمشايخهم أو لآرائهم، هذه الشُبهة مفادها أن القرآن والسُّنَّة لا يستطيع أحد أن ينظر فيهما وأن يتدبرهما إلا المجتهد المطلق.

وطالما أن المجتهد المطلق ليس موجودًا الآن كما يزعمون، فالذي يحاول استخلاص الدليل وفقه القرآن والسُّنَّة: إما زنديق وإما مجنون.

فقال هاهنا: الأصل السادس: رد الشُبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسُّنَّة.

الشُبهات إما أن تكون شُبهاتٍ في الاعتقاد والدين، وإما أن تكون شُبهات في العمل والمعصية وغير ذلك.

- الأولى تتعلق بمسائل الاعتقاد، أعني الشُبهات التي تتعلق بأمور العقيدة والدين والتوحيد والمنهج ، هذه تسمى شبهات، العلماء اصطلحوا على تسميتها بالشُبهات، وهي التي ذكرها الله تبارك وتعالى في صدر سورة آل عمران.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

فالذي يتَّبع المتشابه من القرآن ولا يرده إلى المحكم هذا متَّبع للشُبهات.

- وأما الفتنة الثانية فاصطلح العلماء على تسميتها بالشهوات لأن القرآن سمّاها كذلك، قال الله تبارك وتعالى في كتابه في سورة مريم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وفتنة الشبهات أعظم من فتنة الشهوات في الغالب، وقد يكون العكس؛ لأن المرء في فتنة الشهوات يعلم أنه عاصٍ لله وأنه يريد أن يتوب وأن يؤوب إليه.

وأما فتنة الشُبهات فإن الواقع فيها يكاد يقطع أنه على الصراط المستقيم وأن غيره منحرف عن هذا الصراط.

فالشُبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسُنَّة واتِّباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، مفاد هذه الشُبهة: صعوبة النظر في القرآن والسُنة.

فكأن الذي يقرأ القرآن والسُنة لا يقرأهما إلا من أجل التبرك، لا يقرأ القرآن من أجل تدبره والعمل به، ولا يقرأ سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجل استخلاص الأحكام منها وإنما من أجل التبرك فقط، لماذا؟

يقول هؤلاء: لأنه لا يستطيع أن ينظر في القرآن والسُنة إلا المجتهد المطلق.

فما الاجتهاد؟

الاجتهاد لغة: بذل الجُهد لإدراك أمر شاق، وهو افتعال من الجُهد بضم الجيم، ومن الجَهد بفتح الجيم بمعنى الطاقة.

أما إن فتحناها فقط فقلنا الجَهد: فمعناه المشقة وبلوغ الغاية كما جاء في لسان العرب.

وأما الاجتهاد في الاصطلاح: فهو بذل الجُهد لإدراك حكم شرعي.

والاجتهاد: إما أن يكون اجتهادًا تامًا، وهو أن يبذُل المجتهد كامل جُهده ووسعه للوصول لغايته، فإن لم يكن كذلك فهو اجتهاد ناقص.

الإنسان إذا أراد أن يستخلص الحكم الشرعي من آية أو من آيات وأحاديث:

إما أن يبذُل كامل جُهده ووسعه: فهذا يسمى اجتهادًا كاملًا، بذل كل وسعه وجُهده في سبيل الوصول لهذا الحكم.

فإن كان الأمر بخلاف ذلك فهو اجتهاد ناقص.

وقد ضرب الطوفي في شرح مختصر الروضة لذلك مثالًا، قال: كمن ضاع منه درهم في التراب، فقلَّبه برجله وراح، أراد أن يبحث عن هذا الدرهم قلَّب التراب برجله، فلما لم يجده ذهب، وجاء آخر فجاء بغربال فغربل التراب حتى يجده،أو حتى يغلب على ظنه عدم وجوده:

فالأول اجتهد اجتهادًا جزئيًا، والثاني اجتهد اجتهادًا كليًا.

والاجتهاد في الدين لا بد له من شروط؛ فليس لأي أحد أن يجتهد في دين الله، ليس له أن يستخلص الأحكام والدلائل من الكتاب والسُنة إلا إذا استجمع هذه الشروط؛ لأنه سيتكلم في دين الله, والكلام في دين الله بغير علم من أشد المحرمات، بل هو أعظم المحرمات.

كما ذكر الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فالذي يتكلم في دين الله بغير علم وقع في أشد المحرمات، وهو أنه قال على الله بغير علم.

فالذي يتكلم في دين الله لا بد أن يكون مستجمعًا لهذه الشروط، **ولكن ما هذه الشروط؟**

ذكرها كثير من أهل العلم، ومن هؤلاء العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته القيمة في الأصول من علم الأصول:

●أولًا: من أراد أن يصل إلى مرتبة الاجتهاد لا بد أن يعلم من الأدلة الشرعية ما يحتاج إليه في اجتهاده، كآيات الأحكام وأحاديثها.

أراد أن يجتهد في مسألة من المسائل الفقهية كأحد مسائل المواريث أو الوضوء, فلا بد أن يكون ملمًا بالآيات والأحاديث التي وردت في الوضوء، أو التي وردت في المواريث، وأما بخلاف ذلك فلا يجوز له أن يتكلم، وهذا أولًا، وهو اجتهاد جزئي، والصحيح جوازه.

وآيات القرآن كلها أحكام.

●الأمر الثاني: أن يعرف ما يتعلق بصحة الحديث وضعفه؛ لا بعد أن يكون عالمًا بصحة الحديث وضعفه،أن يميِّز الصحيح من السقيم، حتى لا يستدل بحديث ضعيف، وما أكثر الأحاديث الضعيفة بين الناس.

تجد الواحد إذا أراد مثلًا أن يتكلم في فضل شهر رمضان لا يذكر إلا الأحاديث الضعيفة: أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عِتق من النار. هذا حديث لا يصح.

وكذلك الأحاديث الواردة في كثير من الفضائل كفضائل رجب، وفضائل قيام ليلة النصف من شعبان، وفضائل صلاة التسابيح. كل هذه الأحاديث أحاديث ضعيفة.

فتجد بعض الناس لا يميز الصحيح من السقيم، فهذا لا يجوز له كذلك أن يتكلم في دين الله.

●الثالث: أن يعرف الناسخ والمنسوخ، وأن يعرف مواقع الإجماع؛ لأنه قد يستدل بآية وهي منسوخة نسختها آية أخرى، يستدل بآية لم يعد يُعمل بها الآن، رُفِع حكمها، فلا بد أن يعرف الناسخ من المنسوخ.

وأن يعرف مواقع الإجماع؛ لأن من المسائل ما أجمع عليه الصحابة وأجمعت عليه الأمة، والأمة لا تجتمع على ضلالة، وهذا يرفع الخلاف.

فقد يذكر قولًا ويرجِّح قولًا في مسألة، وهذا القول يخالف الإجماع المنعقد.

●كذلك: أن يعرف مهمات القواعد الأصولية كالعموم والخصوص, ودلالات الألفاظ والإطلاق والتقييد، والناسخ والمنسوح حتى لا يحكم بها يخالف ذلك، لأنه قد يحكم على أساس آية عامة أو حديث عام، وهذا الحديث له ما يخصصه، وهذه الآية المطلقة لها ما يقيِّد هذا الحكم الوارد فيها، فلا بد أن يكون ملمًا بالقواعد الأصولية، وأن يكون عالمًا بالقياس، عالمًا كيف يرجِّح بين الأدلة المتعارضة .

● كذلك: أن تكون عنده ملكة الاستنباط:

بعض الناس قد يكون حافظًا لكتاب الله ولسُنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ, لكنه ليس مؤهلًا أن يستنبط، ليس مؤهلًا أن يستخرج الحكم من الدليل، هو يحفظ فقط، لكنْ أن يفهم الدلالة من هذا الدليل لا يستطيع ذلك، فهذا كذلك لا يجوز له أن يجتهد في دين الله.

فمَن كان عنده هذه الشروط التي ذكرناها حرم عليه التقليد، لا يجوز له أن يُقلِّد غيره في المسائل، وإنما عليه أن ينظر في الدلالة في الآيات والأحاديث.

أضرب لكم مثالًا: إنسان عنده هذه الملكات وهذه الشروط التي ذكرناها وأراد أن يبحث في حكم الوضوء من لحوم الإبل: هل لحوم الإبل أي لحم الجزور ينقض الوضوء أم لا؟

هذا الإنسان الذي عنده الشروط التي يستطيع أن يجتهد بها يحرم عليه أن يقلِّد غيره في حكم هذه المسألة. يعلم أن الشافعي ما أوجب الوضوء، وقال: مَن أكل لحم الجزور فهذا وضوئه صحيح وله أن يصلي به.

لا يجوز له أن يأخذ بقول الشافعي وأن يقلِّد الشافعي، وإنما عليه أن ينظر في الآيات وفي الأحاديث الواردة, وهل منها ناسخ ومنسوخ؟ وهل هناك مَن خالف من العلماء؟ وما دليل المخالف؟ وعليه أن يرجِّح بين الدليلين، ثم بعد ذلك يقف على الحكم الذي يطمئن إليه أنه هو الراجح، هذا فيمَن كانت عنده الملكة.

وأما مَن كان بخلاف ذلك فيكفيه التقليد؛ لأن التقليد بمنزلة الميتة، التقليد لا يكون إلا للعامي ولمن لا يستطيع أن ينظر في دلالات الكتاب والسُنة.

فهو للعامي، وكذلك للمجتهد إذا ضاق عليه الوقت في حادثة ما:

هب أن إنسانًا بلغ رتبة الاجتهاد، الاجتهاد الكلي أو الجزئي، وسُئل في مسألة والجواب مرادٌ حالًا. لا بد أن يجيب حالًا، وضاق عليه الوقت في النظر والبحث والتفتيش في الكُتب:

فله في هذه الحالة أن يُقلِّد غيره على الصحيح، وأما بخلاف ذلك فلا يجوز له أن يُقلِّد غيره.

إذًا الاجتهاد يستطيعه كثير من الناس، حفظ القرآن سهل ميسور، وكذلك حفظ سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والوقوف على آيات الأحكام، هناك كُتب صُنِّفت في آيات

الأحكام، وكذلك هناك كُتب صُنِّفت في أحاديث الأحكام، كعمدة الأحكام, وكذلك بلوغ المرام، وكذلك الكُتب المصنَّفة على المذاهب الفقهية، يستطيع أن ينظر وأن يستخرج وأن يُرجِّح بعد أن تكون الملَكة قد تكونت لديه على يد أهل العلم.

فالأمر ليس صعبًا ولا مستحيلًا كما صوَّر هؤلاء.

ما هذه الشُبهة التي أثارها هؤلاء؟

إنهم يقولون: إنا لا نعرف معاني الكتاب والسُنة، ولا يمكن أن نعرفها، لماذا؟

لا يعرفها إلا العلماء الكبار وقد ماتوا ومضوا.

يقال لهم مثلًا: القرآن فيه أشياء واضحة. هل القرآن لا يشتمل إلا على المسائل التي تحتاج إلى اجتهاد أم أن فيه مسائل يستطيع أي أحد حتى العامي أن يفهمها؟

الأمر الثاني هو الصحيح. فيه مسائل يستطيع العامي أن يفهمها، التوحيد يفهمه كل أحد، كقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] هذا فيه إثبات التوحيد ونفي التنديد الذي هو الشرك، هل هذا أمر صعب يحتاج إلى أن يجتهد مجتهد في استخراج الدلالة من هذه الآية؟

هذا يفهمه كل أحد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] هذه الآية يستطيع أي عامي أن يستخرج الحكم منها.

ما الحكم الوارد في هذه الآية؟

الحكم الوارد في هذه الآية: أن كل مَن أشرك بالله فالجنة عليه حرام، ومأواه الناس وبئس المصير عياذًا بالله.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ [الإسراء: ٣٢] هذه لا تحتاج إلى مجتهد، ففيها بيان حرمة الزنا، فالله ﷻ ينهانا عن قُربان الزنا.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] هذا يفهمه كل أحد لا يجوز لنا أن نأكل الميتة.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] فهذه كذلك دلالتها واضحة، الله ﷻ يأمرنا بغض البصر. وحفظ الفَرْج لأنه سبيل النجاة في الدنيا والآخرة.

إذًا هناك من القرآن ما هو واضح لا يحتاج إلى اجتهاد.

وأما هؤلاء فيقولون: القرآن والسُنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق.

مَن هذا المجتهد؟ يضعون أوصافًا عسيرة جدًا، حتى إذا نظرت في هذه الأوصاف قلت: لا يستطيع أحدٌ أن ينظر في الكتاب والسُنة، ومن ثَمَّ ينبغي أن يُسلِّم لِمَا قالوه دون النظر في الكتاب والسُنة.

بل هذه الأوصاف التي وضعوها قد لا تجدها في أفضل الناس بعد الأنبياء كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغير هؤلاء من الأفاضل.

وهذا الكلام كلام باطل؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢], وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ما الدلالة في هذه الآية؟ الله تبارك وتعالى ندبنا لتدبره، وأوجب علينا ذلك، ونهانا عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة.

الله تبارك وتعالى قال ذلك في معرض الذم والتوبيخ لهؤلاء الذين أعرضوا عن كتاب الله قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ

اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] القرآن لا اختلاف فيه ولا تعارض، وإنما يُصدِّق بعضه بعضًا، آياته محكمات، دلالتها واضحة.

كذلك قال تبارك وتعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] فآياته محكمة ومفصَّلة يُصدِّق بعضها بعضًا.

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فكلام الله تبارك وتعالى صِدق في الأخبار عدلٌ في الأحكام.

فهذا يبيِّن أن القرآن يحتاج إلى تدبر، فكيف يقال لا يجوز لك أن تنظر في القرآن ولا في سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

القرآن قد يسَّره الله تبارك وتعالى، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] فهل من معتبر، فكيف يقول الله تبارك وتعالى عن قرآنه أنه يسَّره للذِكر وللادِّكار والاعتبار وهؤلاء يقولون: أنت لا تستطيع أن تفهم الأحكام الواردة في كتاب الله تبارك وتعالى؟

ولكن كما قال العلماء: كلٌ يأخذ ويفهم من القرآن بحسبه، الإنسان قد ينظر في آية يستخرج منها حكمًا واحدًا، وغيره ينظر في الآية يستخرج منها خمسة أحكام، وهذا فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

استنباط الأحكام من الآيات والأحاديث هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

فالشيخ هاهنا يقول: دعكم من هؤلاء الذين يصرفون الناس عن القرآن، وعليكم بتدبر القرآن والإقبال على سُنة النبي العدنان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لماذا؟ لأن تدبرهما فيه النجاة في الدنيا والآخرة، كيف لا والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسُنَّتي»**.

ما معنى الاعتصام؟

أن نضع المصحف في حقيبتنا أو في السيارة وأن نمسك صحيح البخاري في أيدينا هذا هو معنى الاعتصام؟

أم أن معنى الاعتصام أن نعمل بما ورد في الكتاب والسُنة؟ أن نتدبر ما جاء في كتاب الله وفي سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ إذًا هذه دعوة إلى تدبر الكتاب والسُنة.

عدم تدبر الكتاب والسُنة والجهل بهما يجعل الأمور تلتبس على العامي، وكذلك على كل مَن أعرض عن الكتاب والسُنة، خاصة في أزمنة الفتن.

تجد هؤلاء المعرضين عن الكتاب والسُنة يتبعون كل ناعِق، مع دلالة ووضوح أحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مثل هذه الأبواب:

فتجد بعض الناس يُتابِعون أُناسًا في شهواتهم، فيُحِلون الربا، ويتعاملون بالربا، مع أن الله قال في كتابه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥], وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وبيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحكام الربا مفصَّلة،ومع ذلك لمَّا أعرض هذا عن فَهم وتدبر الكتاب والسُنة صار يتَّبع كل ناعق.

فإذا قلت له: الربا حرام، يقول: قال فلان.

أحاديث كثيرة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تحريم هذا الأمر، ومع ذلك تجد العوام بل وبعض من يدعي طلبه للعلم يتبعون كل ناعق، لماذا؟ لأنهم إذا قيل لهم قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقولون لك: أنت تحفظ ولا تفهم،لا تفهم هذه الأحاديث. لماذا يتهمونك بذلك؟

لأنه على مقتضى كلامهم لا يفهم هذه الأحاديث إلا المجتهد المطلق، ولن تستطيع أنت يا طالب العلم أن تفهم هذه الأحاديث، وبالتالي سلِّم لهؤلاء، فسلَّموا لهم.

الواجب أن نفهم ما جاء في كتاب الله وفي سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونأخذ بظواهر القرآن والسُنة. أما الدعوة إلى الإعراض عمَّا جاء في الكتاب والسُنة فهي دعوة قديمة منذ ظهور الفِرق كالمعتزلة والأشاعرة والخوارج.

فها هو مثلًا الصاوي من علماء التفسير، وضع حاشية على تفسير الجلالين، فلما جاء في حاشيته هذه التي وضعها على تفسير الجلالين إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤], ماذا قال؟

قال: ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأَربعة، ولو وافق قول الصحابة، والحديث الصحيح، والآية؛ فالخارج عن المذاهب الأَربعة ضال مضل، وربما أَدَّاه ذلك للكفر؛ لأَن الأَخذ بظواهر الكتاب والسنة مِن أصول الكفر! " انتهى بلفظه، وقد رد عليه الشنقيطي رحمه الله في الأضواء رداً بليغاً فليراجع .

هؤلاء يقولون: ولو وافق الحديث الصحيح والآية، فدع الحديث الصحيح ودع الآية وقلِّد مَن شئت من أصحاب المذاهب الأربعة، وهذا هو الموجود الآن في الفتوى في الفضائيات.

تجد الواحد إذا سُئل في مسألة ما يقول: قال الشافعي، وقال أبو حنيفة، وقال أحمد، وقال مالك، وخذ ما شئت، ولا يذكر آية ولا حديثًا يُدلِّل بها على الحكم، لماذا؟

لأن هؤلاء يقولون: دع هذه الأمور ولو وافقت، دع قول الصحابي ودع الآية ودع الحديث وخذ بمذهب من المذاهب الأربعة.

يقول: فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مضل، وربما أدَّاه ذلك للكفر، لماذا؟

هكذا قال: لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسُنة من أصول الكُفر عياذًا بالله.

إذًا كأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جاءنا بالكفر وتركنا.

يعني أنا لو أخذت بقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢] لو أخذت بظاهر هذه الآيات فهذا قد يؤدي إلى الكفر عند هؤلاء.

ومن ثم ماذا قال هؤلاء في مسألة الصفات؟

لَمَّا أثبتنا الصفات الله تبارك وتعالى ماذا قالوا؟ قالوا بنفي كل هذه الصفات، فالله عند هؤلاء ليس مستويًا على العرش، وليس له يد، وليس له سمع، وليس له بصر، ولا يأتي يوم القيامة سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لماذا؟ لأنهم لا يأخذون بظواهر هذه الآيات، وإنما هو التفويض أو التحريف بسبب ما تشربوا به من مناهج كلامية سوفسطائية لا تسمن ولا تغني من جوع.

ما حكم مَن طلب الهُدى من الكتاب والسُنة عند هؤلاء؟

يقول: ومَن طلب الهُدى منهما أي من الكتاب والسُنة فهو إما زنديق، وإما مجنون لأجل صعوبة فهمها، فسبحان الله وبحمده، كم بيَّن الله سبحانه شرعًا وقدرًا، خلقًا وأمرًا في ردِّ هذه الشُبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أكثر الناس لا يعلمون هذا الأصل وهو وجوب أخذ الأحكام من الكتاب والسُنة.

ثم ذكر الآيات الأُولى من سورة يس. قال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا

يُبْصِرُونَ ۞ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ٧ – ١١].

هذه الآيات ذكرها الله تبارك وتعالى في المعرضين عن كلامه وكلام رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وخير دليل على ذلك: الآيات التي سبقت هذه الآيات، ماذا قال الله تبارك وتعالى في الآيات التي سبقت هذه الآيات؟

قال: ﴿يـس﴾ ويس ليس اسمًا من أسماء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنما هو من الحروف المقطَّعة الياء والسين، وكذلك طه ليس من أسماء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،وإنما هو من الحروف المقطَّعة الطاء والهاء.

فالذي يُسمِّي ولده طه أو يس يعتقد بذلك أنه يوافق اسم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا خطأ.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسمه: محمد، وأحمد، والحاشر، والماحي، والعاقب، وهو المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه أسماء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس منها هذه الأسماء، وإنما هي حروف مقطعة ذكرها الله في بداية بعض السورة ليتحدى بها العرب، ليقول لهم: هذا القرآن هو من جنس الحروف التي تتكلمون بها، فهل تستطيعون أن تأتوا بمثله؟

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

الآيات التي سبقت هذه الآيات ماذا يقول الله فيها؟ يقول: ﴿يس ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۞ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞

لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١ - ٧].

الله تبارك وتعالى في هذه الآيات أقسم بماذا؟

قال: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢] فأقسم بالقرآن الحكيم الذي وصفه بالحكمة والحكمة وضع كل شيء موضعه، وضع الأمر والنهي في المحل اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر كذلك في محلها اللائق بهما.

فأحكام القرآن الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة.

ثم قال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣] وهذا هو المقسَم عليه؛ رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنك يا محمد من جملة المرسلين، فليس محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببدع من الرُسل.

وأيضًا فقد جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما جاءت به الرُسل من الأصول الدينية، ومَن تأمَّل أحوال المرسلين وأوصافهم وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم عرف أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيار المرسلين، بما فيه من صفات الكمال ومن الأخلاق الفاضلة.

فأقسم الله تبارك وتعالى بالقرآن، وكان المقسَم عليه رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبينهما اتصال: وهو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المبلِّغ عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن القرآن خير دليل على صحة رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم أخبر بأعظم أوصاف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ٤] فرسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معتدلة موصِّلة إلى الله تعالى وإلى دار كرامته.

فانظر كيف جمع القرآن في هذا القَسَم، جمع بين القَسم بأشرف الأقسام وهو القَسم بالقرآن الكريم، على أجل مقسَم عليه وهي رسالة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا يحمل المرء على ماذا؟

على الاعتناء بهذا الكتاب وعلى تدبره، وعلى الاعتناء بسنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستخراج الأحكام منها.

وأما مَن أعرض عن دلالة الكتاب والسُنة فهو الذي ظلم نفسه ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٧، ٨] بذنوبهم وبإعراضهم وبتركهم الكتاب والسُنة ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ [يس: ٨] استحكمت منهم﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٨، ٩].

تُتلى الآيات وتُذكر الأحاديث لهؤلاء ولا يستطيع الواحد أن يعتبر بها، لماذا؟

لأنه هو الذي أعرض عنها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠] أي لا يؤثِّر فيهم القرآن ولا سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنما يتأثر بالقرآن ويتدبره ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

فهذا أصل عظيم يحملنا على تدبر القرآن وكذلك استخراج الأحكام من سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وختم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة العظيمة بما بدأها. بدأها بالحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وختمها كذلك بقوله: والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

وهـذا مـن فقهـه وحسـن تصـنيفه رحمـه الله، فنسـأل الله تبـارك وتعـالى بأسـمائه الحسـنى وصـفاته العُـلا أن يجعلنـا مـن المتـدبرين لكتابـه المتفقهـين في سُـنة نبيـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وأن يرزقنـا الهدايـة والاسـتقامة عـلى ذلـك حتـى نلقـاه، إنـه ولي ذلـك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.